الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالاسلام

٤٣

٢/٥

جوهر الإسلام

للأستاذ أنور الجندي

اهـــــــــداء2004

الهــيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

جوهر الإسلام

للأستاذ أنور الجندي

الكتاب
الثالث والخمسون

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

القاهرة
١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« مدخل »

مازال « الاسلام » قادرا على أن يعطى الفكر الانسانى ويأخذ منـه ، شأنه دائما فى مختلف أدواره وخلال أربعـة عشر قرنا . وقد أعطى كل من اتصل به سواء كان اتصال اندماج أو اتصال خصومة . أعطى هذه الأمم التى امتزجت به وأخذ منها واستوعب ثقافات الأمم السابقة له من يونان ورومان وهنود وفرس وانتفع بها . واستطاع أن يصبغ الحياة فى أوربا بطابعه ، منذ بلغت أضواؤه الأندلس وأقام فيها جامعاته العلميـة التى امتدت آثارها الى فرنسا وايطاليا . وشكلت خميرة النهضة الغربيـة الحديثة فى مجال : العلم والفكر والحضارة . كما استطاع أن يمد لغته على الأرض كلها ، وأن يؤثر فى لغات العالم الاسلامى ، تأثيرا عضويا فى تركيبها الخاص ، وفى مضمونها أيضا ، فقد كانت ثقافة القرآن هى مصدر الثقـافة العربية الاسلامية خارج نطاق الأمة العربية . فى كل مكان وصل الاسلام اليها ، وقد استطاع فى أشد أوقاته السياسية وضغط القوى المعادية له : الحروب الصليبية وغزوات التتار والاحتلال الغربى أن يفتح آفاقا جديدة ، وقبل أن تنتزعه القـوى المتجمعة عليه فى الأندلس كان قد استطاع أن ينفذ الى أعماق جنوب شرق آسيا وأن يكسب فيها أتباعا جددا ، وقبل أن تزول دولته فى الامبراطورية العثمانية كان قد وسع آفاقه فى شرق أفريقيا ووسطها .

وهكذا لايتوقف الاسلام عن الامتداد ، ولا يرتبط بناموس الحضارات السابقة له التى يسقط فكرها اذا سقطت ، فهو ليس رباطا سـياسيا متغيرا بقدر ما هو رباط اجتماعى مستمر ، غير أن ظـاهرة جديدة ارتبطت بالنفوذ الاستعمارى فى خلال قرن وربع قرن تقريبا كان لها أثرها البعيد المدى ، تلك

هى ظاهرة الحملة على الاسلام والفكر العربى الاسـلامى واثارة الشبهات حوله والقاء التهم والشكوك حول مفاهيمه وقيمه .

هذه الظـاهرة كانت بعيـدة المـدى فى اتجاه المفكرين والكتاب الى « الدفاع عن الاسلام » ، الذى أصبح أشـبه ما يكون بالسوق الى قفص الاتهام . وفى تقدير بعض الباحثين أن هذه الحركة قـد عطلت الدعوة الى الاسلام نفسه ، فأصبح المفكرون المسلمون فى شغل شاغل بالرد على الهجوم بدلا من أخذ المبادءة فى الدعوة الى الاسلام نفسه ، والحق أن تحليل مايوجه الى الاسلام من اتهام والرد عليه وازالة الشبهات المثارة وكشفها على نحو علمى عقلى دقيق ، دون أن يطغى على ذلك طابع التعصب أو العنف أو الكتابة الحماسية أو العاطفية ، هو عمل من صميم « الدعوة الى الاسلام » ذلك أن هذه الاتهامات والشبهات لم تعد كلمات تلقى أو تذاع ، بل أصبحت نصوصا فى دوائر المعارف ومصادر الدراسات فى الجامعات ، والمدارس ، وهى مبثوثة فى المراجع الاساسية التى يلجأ اليها الأساتذة والباحثون فى العالم الاسلامى، فتجرى على أقلامهم دون تنبه اليها ، وهى بعد هذا كله سلاح يحمـل لواءه خصوم العرب والاسلام من أجل القضاء على مقومات هذه الأمة .

***

ولذلك كان لابد من تعقب هـذه الشبهات ودراستها والرد عليهـا ، والكشف عن وجوه الخطأ والاضطراب فيها . وهو عمل ترجع أهميته الى أن النفوذ الاستعمارى يحاول اليوم أن يتخذ مكانا له عن طريق ثغرة قد يجدها فى مجال الفكر العربى ، حيث يستطيع أن يهـدم عاملا أو أكثر من العوامل المكونة لمقومات هذه الأمة ايمانا منـه بأن ذلك سيقتل أو يضعف « القوة النفسية » التى تواجه نفوذه ويقضى عليه ، وليس معنى هـذا أن « الفكر العربى الاسلامى » يغلق نفسه أبدا ، فهو لم يغلق نفسه طوال أربعـة عشر قرنا ، وقد كان دائما مفتوحا على آفاق الفـكر يأخذ ويعطى ، ويستوعب ويمتص ، على قاعدته الأساسية التى لاينحرف عنها وهى أن الاسلام : دين ومدنية، وقلب وعقل ، ودنيا وآخرة، وروح ومادة، وأن هذه العناصر تتزاوج وتتلاقى فى تكامل واضح ، وأن مصدر الاضطراب انما يجىء من انفصالها ،

ذلك طابع الفكر العربى الاسلامى ، الذى بنى قاعدته الأولى على أساس « التوحيد » ، وسيادة الانسان على الكون تحت حكم الله ، قبل أن يلتقى بالفلسفات اليونانية والرومانية والهندية ، ومن هنا كان موقفه منها موقف حرية الاقتباس والتضمين، فهو قد رفض كل ما يتعارض مع قاعدته الأساسية، وقبل كل ما يزيده قوة على الحياة ، ويشحذ أسلحته فى سبيل الدفاع عن العقائد واذا كان الاسلام فى مضمونه الأصلى عصارة الأديان السماوية باعتباره خاتمها ، فانه فى مجال الفكر قد استطاع أن يذيب مختلف الثقافات الانسانية السابقة عليه فى كيانه دون أن يفقد مقوماته الأصلية ، ذلك أنه أساسا دين « الانسانية والعالمية » ، ومن هنا كانت قدرة الاسلام على الالتقاء بالثقافات والحضارات خلال عمره الممتد ، دون أن يصطدم بها . ومن هنا كانت مرونته فى مواجهة العصور والثورات والدعوات والمذاهب سواء فى داخل نطاقه أم فى خارجه ، دون أن يقضى عليه منها شىء .

***

والواقع أن الاسلام منذ ظهوره الى اليوم ، كان قادرا على الحياة والحركة مؤثرا فى مجرى التاريخ ، سواء فى ابان انتصاراته ، أو فى خلال فترة الضعف التى مرت به ، أم فى مرحلة اليقظة التى تمر به اليوم ، وحتى نقف على أساس ثابت فى هذا البحث علينا أن نواجه هذه الحقائق العشر :

أولا : ان الاسلام كان مفهومه الصحيح الكامل : دينا ومدنية .

ثانيا : ان وثيقة الاسلام الكبرى الخالدة « القرآن » قد حفظت من التحريف .

ثالثا : ان الاسلام لم يتوقف عن الانتشار منذ بزوغ فجره حتى فى أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار .

رابعا : أكد الاسلام أهمية العقل ، وفضل العلم ، وجمع بين الاتجاهين المادى والروحى . ولم يكن عائقا عن التقدم .

خامسا : التفسير التاريخى للاسلام يعطى مفهوما يختلف كل الاختلاف مع مقاييس الأديان والمذاهب المختلفة .

سادسا : أبرز طوابع الاسلام بعد التوحيد : طابع الشمول .

سابعا : استمرار قدرة الاسـلام الدائمة المتجددة على البقـاء ومنح الانسانية قيما جديدة .

ثامنا : ما تزال اللغة العربية هى لغة الاسلام ثقافة والأمة العربية قومية.

تاسعا : ان دور العرب والمسلمين فى العلم والحضـارة لا سـبيل الى تجاوزه أو انكاره .

عاشرا : ان الشريعة الاسلامية حية صـالحة لكل زمان ومكان ، قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها .

* * *

(١) الاسلام دين ومدنية

ولقد واجهت الاسلام شبهة القول بأنه دين روحى ، ينظم العلاقة بين الله والانسان ، لاصلة له بالحياة والمجتمع ، فى هـذا محاولة لانكار مفهوم الشمول فى الاسلام على أنه دين ومدنية ، وقد واجه هذا كثير من الباحثين المنصفين ، يقول « العلامة » الزى لشبتنشاتر : الاسلام ليس دينـا فحسب ولكنه أسلوب فى الحياة ، والاسلام كدين له قيم خاصـة ، وخير دليل على ذلك أن الأديان الأخرى لم يستطع أحدها أن يجد سبيله الى نفوس الأميين والفقراء من المسلمين أو الى نفوس المثقفين ثقافة عالية ، وانك لتجد علمـاء الذرة والحيـوان والرياضة رغم بلوغهم هذه الدرجة العليـا ظلوا مخلصين لدينهم الاسلامى ، وما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم فى أوربا تحول عن الاسلام الى دين آخر ، وان كان بعضهم قد اسـتغرب فى أنماط حياته ولم يحدث هذا عن مصادفة ، ولكن له دلالته القوية ، ذلك أن الاسلام له « قيمه » التى لاترضى الجاهل فحسب ، بل التى تكفى حاجات المتعلمين والمثقفين » .

ويقول موريسون : ان الحق الذى لايمارى فيه أحد أن الاسلام أكثر من معتقد ودين ، وانما هو نظام اجتماعى ، تام الجهاز ، هو حضـارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها .

* * *

ويرى الدكتور بول ركلا : لقد آن لنا أن نعرف ويعرف العالم جوهر هذا الدين ، دين يجب أن لا نكتفى بتسـميته دينا ونقف ، بل لنعطه اسمه الحقيقى ، ولنسمه فلسـفة دينية ، فنكون قد أعطينـاه مركزه بين الأديان ، ولست بمغال اذا صرحت علنا وقلت ان الاسلام مفتوح بابه على مصراعيه ، وهو واسع الأرجاء ، لتلقى الرقى الحديث الذى أنتجته الأجيـال الطويلة ، وليس كمـا يزعم البعض محـدود الأطراف ضيق المدخل ، لأن تعـاليمه

الرفيعة ، وضعت لكرور الدهور ، وستبقى خالدة وضاءة الأنوار ، تكشف كل مدنية تتمخض عنها العصور ، وهو الدين الوحيد الذى حل بعدل مشكلة حقوق البنين وواجباتهم باعترافه بالمولود ، ضـاربا عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواميسهـا فى التفرقة بين الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين، فأعطى بعض الأولاد كل الحقوق وحرم الآخرين ، وانالاسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذى أوجد بتعـاليمه السامية عقبـات كثيرة تجـاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيـه فخرا أنه قدس الأنسال وعظمها ليرغبالرجل بالزواج ويعرض عنالزنا المحرم شرعا وتشريعا ، وأن الاسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التى لم تزل للآن تشغل مشترعى الغرب بمعتقداتها ، فالاســلام هو الدين الديمقراطى الوحيد سوء بتعاليمه أم بشرائعه أم بعاداته فهو لا يعتـرف مطلقا بالزعامة الدينيـة .

* * *

ويقول الدكتور جرمانوس : ان أوربا لم تعرف الاخاء بين النـــاس الا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الاسلام اليها وطبقها قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام ، لقد كانت فكرة المســاواةوالديمقراطية من ابتكار « القرآن » ، عرفتها أوربا فى القرن الســابع عشر بينما هى من حقــائق الاسلام وأصوله منذ نشأته .

ولم يعترف حكام أوربا بالاشــتراكية الا فى السنوات الحديثـة بينما سبقهم الاسلام الى المساواة بين المسلمين وأهل الـكتاب (يهود ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكى الصحيح واستمتع فى ظل نظامه كافة الناس بكل الحقوق الانسانية » .

(٢) وثيقة الاسلام الخالدة : القرآن

أما « القرآن » فقد ظل قادرا على التــأثير فى الفكر العربى الاسلامى وفى الفكر الانسانى عامة ، اذ كانت اجاباته على مختلف القضايا والمعضــلات موضع تقدير الباحثين ، على أساس أنها قادرة على حل أزمة الانسان الحديث.

يقول فيليب دى طرازى : لســنا نعرف كتــابا عربيا أثار همم العلماء والباحثــين فى أربعــة أقطار المسكونة كما أثارها القــرآن منــذ ظهوره الاسلام الى اليوم ، تلك حقيقة صادقة لا تفتقر الى برهان يسندها أو حجة تدعمها ، ومن المقرر الثابت أنه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى فى الخافقين ، ولولا القرآن لما أقبل ألوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة ، وعلى كتابتها ودرسها والتعــامل بها ، فالقرآن عزز الجامعة العربيــة وصان عنصرها ، وضمن سلامتها على توالى الزمان ، ذلك أن الاسلام فرض على كل مسلم أن يدرســه ويحفظه ويجود قراءته قبل أى علم من العــلوم البشرية ، وهكذا حفظ التفاهم بين الشعوب الاسلامية وغيرها من الشعوب ، وقد استعصت اللغة العربية بفضله على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الرواسى خلافا لما انتاب لغات الأقوام الذين اندمجوا فى العرب بعد الاسلام ، كالرومان والسريان والأقباط والأنباط والصابئة واليهود وغيرهم .

***

وفى تقدير العلامة « اتيان دينيه » أن القرآن قد حقق معجزة لا يستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها ، ذلك أنه مكن اللغة العربيــة فى الأرض بحيث لو عاد أصحاب الرسول اليوم الينا لكان ميسورا لهم أن يتفاهموا تمام التفاهم مع أهل اللغة العربية وهذا عكس ما يجده مثلا أحد معاصرى (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذى هو أقرب الينا من عصر القرآن من الصعوبة فى مخاطبة العدد الأكبر من فرنسى اليوم . وان لغة القرآن وان كانت تمتاز

أصولها الى عصور بعيدة قديمة فهى مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجد من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئا من رونقها وسلامتها .

ويقول العلامة فيبنى أن القرآن ليس بكتاب دينى فقط بل كتاب علم الاطلانطيكى الى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسى ليس لأصول الدين فقط بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التى عليها مدار حياة نظام النوع الانسانى وترتيب شئونه .

ويقول العلامة فيبنى أن القرآن ليس بكتاب دينى فقط بل كتاب علم وآداب ، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الانسان الى وظائفه اليومية والأحكام السياسية التى ان لم توجد فى القرآن توجد فى السنة .

ويدافع السير ريتشارد وود عن القول بأن القرآن حائل دون النهضة فيقول : ان القرآن يتضمن أحكام الدين وفى نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية وأن كثيرا من مؤلفى الافرنج يزعمون أن المسلمين لايتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون انها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون وهذا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودرسهم كتب الحكماء والأقدمين .

وتقول الدكتورة لورا فيشيا فاليرى : ان المعجزة التى تفوق كل المعجزات والتى وصلت الينا أخبارها من مصادر غير مشكوك فيها ، صحة فهى « القرآن » فانه كتاب لايستطيع انسان أن يأتى بمثله اذ أن كل عبارة من عباراته متزنة منسقة مشتملة على معان كثيرة سهلة المأخذ ، فلا هى كثيرة الايجاز ولا هى بالغة حد الاسهاب والاطالة ، ولما كان أسلوب القرآن فريدا فى بابه ، ولم يكن له مثيل سابق فى الأدب العربى فانه يقع فى النفس البشرية موقعا صحيحا لا تصنع فيه ولا افتراء ولا تمويه ولا استكراه ، اذ أن آياته كلها على جانب عظيم من الفصاحة حتى ما كان منها خاصا

بالأوامر والنواهى التى يجب منطقيا أن تكون فى أسلوب هادىء كما أن سير الأنبياء وأوصاف بدء الخلق ونهايته والأحكام وخصائص الله وصفاته كل ذلك يتكرر ذكره فى هذا الكتاب العجيب بأشكال وصور متعددة ، ولكن دون أن يفقد شيئا من روعته ومكانته وكذلك فان الانتقال من موضوع الى موضوع فى القرآن يحصل كثيرا ولكن بغير أن ينحط التعبير عن مستواه ودون أن تقل حلاوته ، كذلك فان التعمق وسلامة التعبير وهما صفتان يندر أن يجتمعا معا ، وقد ظهرتا متجليتين فى القرآن ، وفيما عدا ذلك فان كل صور البلاغة تجد تطبيقا كاملا فى القرآن ، فكيف اذن والحالة هذه يمكن القول بأن هذا الكتاب العجيب من صنع محمد الذى لم ينظم طوال حياته سوى بيتا واحدا من الشعر وهو « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ولقد تحدى النبى قومه أن يأتوا بكتاب مثل القرآن أو بسورة واحدة منه ، ومع أن الفصحاء من العرب كانوا أكثر من رمل الصحراء فان أعداء الاسلام لم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن ولكنهم حاربوه بالسلاح عندما لم يجرؤوا على محاربته بالكلام .

(٣) انتشار الاسلام

واصل الاسلام انتشاره منذ فجره الى اليوم ولم يتوقف عن الانتشار حتى فى أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار ، وقد انتشر بقوته الذاتية وبفضل مبادئه التى تحمل عنصرى التوحيد والحرية .

يقول توماس أرنولد : (١) ان كانت دولة الاسلام قد انقسمت وانهارت وحدتها السياسية فان فتوح الاسلام الروحية قد بقيت لاتحول دونها الحوائل، حدث هذا برغم اغارة المغول على بغداد ، وقيام حكام الأندلس بطرد المسلمين من الأندلس ، كان ذلك يجرى والمسلمون يضعون أقدامهم فى أرض جديدة ويدخلون أهلها فى دين الله ، تلك هى جزيرة سومطره ، ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق فى جزائر أرخبيل الملايو وهكذا أقام الاسلام فى ساعات أزمته السياسية بطائفة من أعظم غزواته الروحية .

(١) من كتابه (الدعوة الى الاسلام)

ويقول العلامة مونتيه (١) فى أفريقيا أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقيين ، وهنـاك طرق دينية أخذت على نفسهـا نشر الاسـلام ، على أن الاسلام ينتشر بنفسـه بواسطة المسلمين أنفسهم ، لأن كل مسـلم فى البلاد الوثنية داعيـة دين بحد ذاته ، وقد أنشـأ الدعاة المسلمون قرى يسكنها المهتدون الى دينهم من المحدثين فى الاسلام ، والمدرسة احدى العوامل الفعالة لهم على الجملة عندما ينزلون ويستوطنون فى بقعـة جديدة يصرفون أولى عنايتهم الى انشاء مسجد ويجعلون بجانبه مدرسة .

والمسلم ينشر دينه وهو متوفر على تجارته أو عامل فى صناعته، والاسلام ينشر من نفسه بواسطة القوافل التى ترحل الى البلاد الوثنية ، ودعاة الاسلام فيما عرفوا من الغيرة يعمدون الى ذرائع مختلفة ، تناسب كل حال ، بحسب الأقطار والشعوب التى يبثون دعوتهم بين أهلها ..

لاينكر باحث ولا مؤرخ صلة الاسلام بالعلم وأثره فيـه ، وقد اتسعت هذه الظاهرة فى انتاج الباحثين الغربيين فى الفترة الاخيرة الى حـد بـدا واضحا لا شبهة فيه . وقد رغبنا فى هذا الفصل ان نجمع عصارة ما أثبتـه الكتاب المبرزون وخاصة علماء الجامعات وأساطين الدراسات الكيمائيـة والفلكية .

هذا ما أورده العلامة درابر ، والعلامة مسمر ، والدكتـور لويجى رينالدى ، والاستاذ شاتليه ، ومن الباحثين المعاصرين الاحيـاء جـورج سارطون وفرانز ورزنتال والدكتورة سجريد هونكه .

أما العلامة درابر الاستاذ بجامعة هارفرد بنيـويورك فقد كان فى مقدمة الباحثين فى العصر الحديث الذى أشار الى جهود العلماء المسلمين فى بنـاء المنهج التجريبى وكتابه ((المنازعة بين العلم والدين)) كان شـاهدا عـادلا ، اتخذه الباحثون المسلمون فى أوائل هذا القرن حجة يردون بهـا على شبهات المتعصبين من الكتاب الغربيين وقد استشهد بكتاباته : العـلامة ((فريد وجدى)) فى دفاعه عن الاسلام والشـيخ مصطفى الغـلايينى وغيرهما من الباحثين المسلمين .

(١) من كتابه (حاضر الاسلام ومستقبله)

(٤) الاســـلام والعـــلم

وفى مجال الدفاع عن الاسلام : تبدو القضية الكبرى فى اتهام الاسلام باعاقة تقدم الثقافة والعلوم . ولسنا نحن الذين ندافع عن الاسلام ولكنا ندع بعض المنصفين من المفكرين الغربيين الذين فهموا الاسلام فهما صحيحا .

يقول اتيان دينيه : ان العقيدة المحمدية لاتقف عقبة فى سبيل الفكر فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفى الوقت نفســه حر الفكر ، ولا تقتضى حرية الفكر أن يكون المرء منكرا لله . لقد رفع محمد قدر العلم الى أعظم الدرجات وأعلى المراتب ، وجعله من أول واجبات المسلم ، ويقول « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء ، ويرفع فضل العلم على فضل العبادة » .

ويرى الدكتور جرمانوس : أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعــد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الاسلام بأنه لايوجد فى تعاليم الاســلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقــدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة .

＊ ＊ ＊

ويقول ليوبولد فابس : ما من دين ذهب أبعد من الاسلام فى تأكيــد غلبة العقل وبالتالى غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة .

ويرى العلامة مسمر : ان بين دين الاســلام والعــلم رابطة قوية ، فان الاسلام لم يزدهر الا بانتشار العلوم وتقدمها .

ويقول رينيه ميليه : لقد جاء المسلمون بمبدأ فى البحث جديد ، مبــدأ يتفرع عن الدين نفســه ، هو مبدأ التــأمل والبحث ، وقد مالوا الى العلوم وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء ، وقد وجد فيها كبــار الأطبــاء .

ويقول الدكتور فرنتز رونتال : ان أعظم نشــاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جليا فى حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فانهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة .

ويقول جوستاف لوبون : ان القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب وأن جامعات أوربا عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق وأن الشعوب التى دانت الأرض لسلطانها قد عفت الأيام آثارهم ، ولم تبق سوى ذكريات السنتهم وأديانهم ولكن أهم عناصر مدنية العرب وهى الدين واللسان والفنون لاتزال حية . ولا شك أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

(٥) التفسير التاريخى للاسلام

وفى مجال التفسير التاريخى للاسلام ، يبدو مدى الفرق بين فهم المسلم للتاريخ واحساسه به وتأثره به ، فالمسلم (١) يحس احساسا جادا بالتاريخ ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، ويحاولون أن يصوغوا واقع الأرض فى اطاره ، ومن ثم فالمسلم يعيش دائما كل عمل فردى أو اجتماعى ، فى كل شعور فردى واجتماعى بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله . والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو اجتماعيا ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، أما الماركسى فيؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكنه لايؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لايؤمن فى هذا العالم الا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شىء عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ، ولكنه لا يوجهها ، ولا يعيشها بأية مقاييس خارجة عنها . وما من دين استطاع أن يوحى الى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة وأن الغربى لا يفهم الاسلام حق فهمه الا اذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا أو باطنا » .

(١) ولفرد كانتول سميث

واذا أردنا أن نطبق نظرية التفسير المادى للتاريخ على الاسلام لم نستطع أن نحصل على نتائج واضحة ـ يقول العلامة تريتون : اذا صح فى العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض أو معظم الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، انها تقع فى هذا الشىء الجديد ألا وهو « الاسلام » .

* * *

رأوا أن الاسلام قوة هائلة فيه حقيقة واقعة ، وديناميكية حية ، وهو قوام علم العمران وسبيل الحضارة ، وهو الطريق الى جمع الكلمة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب ، وقد أنشأ المسلمون مذهبا فى الفقه جديرا بالموازنة مع القانون الرومانى ، وأقاموا حضارة لاتقل عن أى حضارة معاصرة فى أوربا ، والدين عند المسلمين حقيقة واقعة ، وجزء متمم لحياتهم اليومية ، وهو ليس رداء يرتديه الأحبار والعلماء ومن ثم فهو يجعل المسلمين اذا وقعت الواقعة وادلهم ليل الخطوب ثابتى الايمان لاتزعزعهم العواصف ، والأنواء ، والاسلام يكبر من شأن العلم اكبارا لاشائبة فيه فهو فريضة على كل مسلم وينظر الى أتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق .

(٦) طابع الشمول

وأبرز ما يتسم به الاسلام فى نظر الدعاة الى الاسلام والمدافعين عنه على السواء « طابع الشمول » : يقول ليوبولد فايس « أن أهم معطيات الاسلام ، تلك المعطيات التى تميزه عن سائر النظم ، هى التوفيق العام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الناحية الانسانية ، وهذا سبب من الأسباب التى عملت على ظفر الاسلام فى ابان قوته أينما حل ، لقد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التى لاتجعل احتقار الدنيا شرطا للنجاة فى الآخرة ، هذه الخاصة الظاهرة فى الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن النبى محمد كان شديد

الاهتمام بالحياة الانسانية فى كلا اتجاهيها ، فى المظهر الروحى والمظهر المادى. ونحن نعد « الاسلام » أسمى من سائر النظم المدنية لأنه يشمل الحياة بأسرها ، أنه يهتم اهتماما واحدا بالدنيا والآخرة والنفس والجسد والفرد والمجتمع ، ونجد الاسلام وحده من بين سائر الأديان ، يتيح للانسان أن يتمتع بحياته الدنيا الى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحى دقيقة واحدة، فليس فى الاسلام خطيئة أصيلة موروثة ، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية ، ان كل مسلم رهين بما كسب ، والاسلام ينظر الى الحياة بهدوء واحترام ، ولكنه لايعبدها ، ان النجاح المادى مرغوب فيه ، ولكن ليس غاية فى نفسه ، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية فى كل ما يعمل ، والغاية من جميع نشاطنا العلمى يجب أن يكون خلقيا .

ويرى الدكتور جرمانوس : أن الاسلام يبسط أمام معتنقيه طريقا وسطا لايتجرد فيه الروح من البدن ، ولا البدن من الروح ، بل يكون وسطا بين الروح والمادة ، ويقول اميل درمنجم : لقد وفق الاسلام بين الاتجاهين المتقابلين : المادى والروحى ، وقال الرسول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وفى القرآن « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

ويرى العلامة هورتن الحقيقة حين يقول : « فى الاسلام وحده ، تجد اتحاد الدين والعلم ، فهو الدين والعلم ، الدين الوحيد الذى يوحد بينهما ، فتجد فيه الدين ماثلا متمكنا فى دائرة العلم ، وترى وجهة الفلسفة ووجهة الفقه متعانقين ، فهما واحدة لا اثنتان .

ويقول رينيه ميليه : ان مبدأ التفريق بين عالم المادة وما وراء المادة قد تنبه المسلمون له فجعلهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح ، وأنه لايمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس.

(٧) قدرة الاسلام على الاستمرار

١ — وفى مجال الدعوة الى الاسلام نجد أن الباحثين المنصفين من الغربيين قد توصلوا منذ وقت بعيد الى أهمية الاسلام بالنسبة للبشرية والحضارة

الانسانية . فالاسلام (١) سيشكل نفســه حسب حاجات العصر الحــديث ولكنه لن يدع الحضارة الغربية تغلبــه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم منذ مئات الأجيال ، بعد أن طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه ، وهم يمثلونه فى ســائر بقاع الأرض ، والمســلمون يستمرون فى دينهم مهما اتخــذوا من الثقــافة والمدنية الغــربيتين ، وفى الجامعات الكبرى نجد كثيرا من المســلمين ، لا يزال مجرى عقولهم اسلاميا ، وفى المسلمين ميل قوى الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه •

٢ — والاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق ، والتقدم الذى نشاهده منذ قرن دليل على أن الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب ، والاسلام سيظل موجودا دائما » •

ويعترف « ليون روش » (٢) أنه وجــد فى الاســلام حل المسـألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم : الأولى قول القرآن «انما المؤمنون أخوة» فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ، والثــانى : فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا اذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا .

ويرى « هاملتون جيب » ان الاسلام « ما يزال فى قدرته على أن يقدم للانسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هنــاك أية قوة سواه يمكن أن تنجــح نجاحا باهرا فى تأليف الأجناس المتنافرة فى جهة واحدة أساسها « المساواة » فاذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع .

وما يزال الاسلام يسلك سبيلا وسطا بين المتناقضات الشديدة فهو يقف فى مكان وسط بين الرأسمالية والبلشفية .

ويقول الدكتــور جرمانوس : ان مستقبل العــالم وخلاصه من خطــر الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده ، لن يكون الا فى المزاوجة بين الحضــارة

---

(١) كرستان ستوك هيروونجة

(٢) من كتابه (ثلاثون عاما فى الاسلام)

الأوروبية بدرسها وعلمها ، وبين الروح السامية التى تنطـوى عليهـا عقائد الدين الاسلامى ، وانى أومل أن يكون الاسلام قادرا مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة فى سبيل وحدة الجماعة الانسانية .

ويقول العلامة رينيه ميليه : يهمنى هنا أن أقول أننا لانستطيع أن نحكم على تلك الأمة بالسقوط ، لأن الأمة التى أمكنها أن تنهض فى وقت ما ، يمكنها أن تعيد نهضتها فى المستقبل ، لقد أفل نجم المدنية الاسلامية بعد ما أثمرت وأينعت فترة طويلة من الزمن ، ويكفى هذه المدنية نفحة من نسيم الحيـاة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها . ان تلك الصبغة العامة اللينـة التى اتصفت بهـا مبـادىء الاسـلام هى التى جعلته يقبل ضروب المدنيـة ولا ينافيها ، بل يقابلها بصـدر رحب ، ويقول بعضهم : اذا كنـا نفرض أن المسلمين يسيرون فى طريق المدنية الغربية سيرا حثيثا فلماذا نعتبر أن هنـاك مدنيتين ، ولماذا لاتفنى المدنية الاسـلامية العربية فى جسم المدنيـة الغربية مادام المسلمون يأخذون العلوم والعلوم أساس كل مدنية ، على أنى لاأشارك أصحاب هذا الرأى فى رأيهم لأن العلم له دائرة محدودة لايتعداها ، وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات ومثل عليا وقيم لها تأثير كبير ، ان العلم مهما اتسعت آفاقه فلا يزال أمامه عالم غامض ، وانه لايمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس ، وعلى ذلك فلا أرى حدا لبقاء الاسلام ، ذلك الدين الذى أتى بأحسن العقائد ملاءمة للفطرة والذى سعد حظه بأن امتـد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سـماء صـافية الأديم لم تتلبد بالغيوم ، فظل نوره متلألئا فى تلك البلاد الواسعة الأطراف ولم تستطع الأحداث أن تطفىء ذلك النور الربانى الساطع . ان مبدأ التفريق بين عالم المادة وما وراء المـادة قد تنبه المسلمون اليـه فجعلهم يقبلون على علومنـا و لايرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح .

(٨) (اللغة العربية) لغة الاسلام والعرب

لقد كانت اللغة العربية لغلا الاسلام ثقافة والأمة العربية قومية ، وقـد وصفها جورج سارطون بالعبقرية فقال : أتحدث عن عبقرية اللغة العربية ففى المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته ، ثم ان الاسلام نزل على

الرسول باللغة العربية ، وهكذا كانت « العربية » لغة القرآن ، ولغة الوحى، ولغة أهل الجنة ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة فى العالم واحدى الوسائل الأساسية للثقافة فى العصور الوسطى ، وهى الى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة فى جميع بقاع الأرض .

وأن اللغة الوحيدة التى عرفها رسول الله كانت من أعظم اللغات فى الوجود ، وأن خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جدا ويمكن لتلك المفردات أن تزداد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق ، يسهل ايجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة .

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب ، كانت بهذا التحديد كاملة ، وها نحن أيضا هنا أمام اتفاق عجيب ، فان الرسول مع أنه أمى كان يملك ناصية اللغة ، اذ أتاه الله بيانا ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحى الالهى أحسن تدوين ، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد ، وقد جعل القرآن الكريم « من اللغة وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة » .

ويقول هنرى لاوس : ان اللغة العربية عندى من أهم دواعى وحدة الثقافة بين المسلمين ، وأهم أسباب تفوق هذه اللغة ، أنها اللغة الرسمية ، ولغة الدين ، ولابد لأجل فهم القرآن والحديث النبوى من معرفة اللغة معرفة دقيقة ، وقد قام اللغويون والنحاة بمجهود عظيم فى البصرة والكوفة لخدمة هذه اللغة

(٩) دور العرب والمسلمين فى العلم والحضارة

وهذا دور قد انكره الغربيون طويلا ، ثم عادوا فاعترفوا به تحت ضغط المنصفين من الباحثين الغربيين المتقدمين أمثال : توماس كارليل وجوستاف لوبون ، وأقربها الينا كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » للكاتبة الدكتورة سجريد هونكه التى تقول : لقد نادى النبى العربى بالطموح الى المعرفة فى كل مكان وزمان ، لأن المعرفة تنير سبيل الايمان، وهكذا لم ينصرم القرن الاسلامى الأول حتى ازدهر العالم العربى فى

سبيل محيط من الزهور ، وحين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى وجهالتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون ، لشد ما يغبن حقهم من يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم الى العالم بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم ، والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء لا غير ، والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم ، ان قواميس اللغات الأوروبية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة ، وفنونها ، واصطلاحاتها ، وقد أخذ الغرب عن العرب فكرة البريد ، كما نقلوا كثيرا من فنون الزراعة ، وقد أخذ العرب الأرقام الهندية فى أواخر القرن الحادى عشر ، ويعود الفضل الأكبر فى تعرف الغرب على الأرقام العربية الى الخوارزمى الذى نقلت كتبه جميعا الى اللغة اللاتينية وكانت مرجعا هاما للعلماء الغربيين .

ويقول جرج سارطون : لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته معجزة العلم العربى وقد أوردت كلمة « معجزة » لترمز الى تفسير ما بلغ اليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريبا عن نطاق التصديق .

وليس لذلك شبه فى تاريخ العالم كله ، ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذى لا يكاد يصدق فى العالم العربى ، لم يبدأ الا منذ القرن الثانى للهجرة ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الانتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما ، وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين ، ان هذا الحكم يكشف عن خطأ فادح ، فمن بعض الوجوه ليس ثمة شىء يمكن أن يعد ابتكارا صحيحا أكثر من ذلك الظمأ الذى تملك على القادة العرب حواسهم فى سبيل المعرفة على أننا لا نشك أن قسما من هذه المعرفة احتاج اليه العرب حاجة مباشرة للادارة والحكم . وأعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك شيئان : علم الحساب الجديد وعلم المثلث الجديد .

(١٠) الشريعة الاسلامية

أما « الشريعة الاسلامية » فقد استطاعت أن تحصل على اعترافات بتقدير العلماء لها فيقول العلامة سانتيلانا : ان فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل ان فيه ما يكفى للانسانية كلها .

ويرى العلامة « فمبرى » ان فقه الاسلام واسع الى درجة أننى أقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم . ويقول العلامة الألمانى « كهلر » على أثر ظهور رسالة الدكتور محمد فتحى فى مذهب « الاعتساف » فى استعمال الحق والخروج عن حدود الحق فى غير ما شرع له الحق قال : ان الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار نظرية « الاعتساف » والتشريع لها فى القانون المدنى الذى وضع ١٧٨٧ ، أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الاسلامى وأبان لنا أن رجال الفقه الاسلامى تكلموا فيه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد ، فانه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعدة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية. ويقول العلامة ليفى أولمان فى مقدمة رسالة الاثبات للدكتور محمد صادق فهمى : ان فى هذه الرسالة ما يكفى للاعتقاد بأن التشريع الاسلامى كاف (وحده) لأن يكون تشريعا عاما ، وعلى ضوء كتاب الدكتور صادق فهمى يجب اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدرا حيا للقانون العصرى ومناطا للحق فى أدواره المختلفة .

ويقول الدكتور هوكنج أستاذ الفلسفة فى جامعة هارفارد فى كتابه روح السياسة العالمية : « ان سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا فى حياة الفرد اليومية ، وعن القانون والنظم السماوية ، وانما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدرا للنمو والتقدم ، وأحيانا يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد أفكار جديدة واصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية ، فالجواب عن هذه المسألة هو أن فى نظام

الاسلام كل استعداد داخلي للنمو ، لابل انه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الاسلامى ، وانما فى انعـدام الميل الى استخدامها ، وانى أشعر بكونى على حق حين أقرر ان الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

ويقول العلامة هوتنر ندرون وريفى : انه يوجد فى الفقه الاسلامى جميع القواعد الجوهرية التى تتعلق بشريعة الحرب والسلم .

ويقول العـلامة الكاثوليكى شـيرل عميد كليـة الحقوق فى فينا : ان محمدا الذى تفخر البشرية بانتسابه اليها استطاع أن يأتى قبل بضعة عشر قرنا بتشريع سنكون نحن الاوروبيين أسعد ما نكون لو وصـلنا الى قمته بعد الفى عام .

بعد هذا الاستعراض السريع للحقائق العشر : نقول :

لقد حرص النفوذ الغربى أن يحول دون الدعوة الى الاسلام بأمرين :

الأول ـــ عزل اللغة العربية فى مختلف الاقطار التى احتلها وتجميدها واحلال لغته بدلا منها ، واعطائها فرصة النمو .

الثانى ـــ اثارة عديد من الشبهات والشكوك حول الاسـلام حتى يظل الاسلام دائما فى قفص الاتهام وفى موضع الابهام ، وحتى يظل كتابه ومفكروه مشغولون دائما بالذود عنه والرد على ما يثار حوله وفى موقف الدفاع لا موقف المبادءة ، وبذلك لا تتاح الفرصة له لكى يشق طريق الدعوة والتعريف وكسب مناطق جديدة وعقول جـديدة ، حيث يصـدر ذلك عن تعصب ، ولكنه يصدر عن ايمان أكيد بأن الانسانية لو عرفت الاسلام حق المعرفة لما اختارت لها سبيلا غير سبيله .

ولكن هذا العمل من أجل الدفاع عن الاسـلام ، أتاح لهـا فرصـا للكشف عن جوهر الاسلام ، وابراز خصائصه ، ومكن للذين قرأوا ما وجه اليه من شبهات أن يجدوا ردودا حاسمة لكل ما عـرض لهم ، وقد أتاحت هذه الفرصة تحقيق امرين :

الأول — ان الاسلام قد كشف عن منهــج فى البحث غاية فى الدقة والسماحة ، بعيدا عن الغموض وبعيدا عن التعصب ، وخاليا من عبـارات القدح أو كلمات الهجاء مع السماحة والأخوة الانسانية .

الثانى — أنه هز عقول المفكرين المسلمين فأزال عنهم طابع الجمود ، وحثهم على البحث والتقصى وابراز جـوهر الاسلام فى أسلوب جـديد ومنهج عصرى ، وكشفه فى نفس الوقت عن طابع الاجتهـاد والتجـديد والحركة وقدرة الاسلام التى لا تتخلف عن الالتقاء بالحضارات والثقافات والامتزاج بها وامتصاص خير ما تقدمه . ومن هنا استطاع جوهر الفــكر الاسلامى العربى أن يبرز على حقيقته ، بعد أن أزيحت عنه أغشية الجمود والتقليد التى فرضتها ظروف مرحلة « الضعف » التى مر بها الاسلام خلال القرون الأخيرة . وقد كان ابراز هذه القيم على وجهها الصـحيح ، قادرا أن يرد بعض خصوم الاسلام عن خطئهم ، وأن يكسب الى صــفه كثيرا من طلاب المعرفة الخالصة لوجه الحق ، ومن هنا التقت الدعوة الى الاســلام مع الدفاع عنه ، وما زال سبيل الدفاع عن الاسلام فى حاجة الى مزيد من الجهد ، بوصفه أحد سبل التعريف بالاسلام والدعوة اليه . ذلك أن النفوذ الأجنبى وحركات التغريب والشـعوبية النابعة من هذا النفــوذ ، مازالت تواصل عملها فى اثارة الشبهات واعادة ترديدها على نحو أو آخر .

***

والحق أنه لا يكفى أن نواجه هذه الشبهات بالرد عليها ودحضها على أسلوبنا ومنهجنا العربى الاســلامى ، بل انه كلما وجـدت اجابات كتبها مفكرون منصفون من غير المسلمين كان ذلك أبعد أثرا فى النفوس وذلك لعدة أسباب :

أولا : أن يكون قد شهد بالحق شاهد من أهل أولئك الخصوم .

ثانيا : ان كلمة الباحث المســلم هى كلمــة « الضرورة » بينما كلمــة الباحث غير المسلم ان خلصت فهى كلمة « الانصاف » .

ثالثا : تتميز كلمة الباحث الأجنبى عن الاسلام بأنه خروج من النفس والعقائد الأصلية ، اذ لا يمكن أن يدافع أحد عن غير دينه الا بعد أن يكون قد قطع مرحلة طويلة فى الدرس والتأمل حتى يبلغ مرحلة اليقين بما يقول .

رابعا : ان الكاتب الأجنبي الذى ولد فى غير بيئة الاسلام،وارتبطت مفاهيمه بدين آخر وبيئة غير بيئة العرب ، مع ما هو معروف من ارتضـاع لبان كراهية الاسلام فى أغلب ثقافات الأمم الغربية ، يجعل للكلمة أهميتها.

خامسا : من أهم مميزات كلمة الكاتب الغربى أنه عاش حيـاة دينه ومجتمعه ، ولذلك فان كلمته ، انما تصدر عن تجربة أصـيلة وعن مقارنة أكيدة وعن تطلع صادق الى مفهوم الاسلام .

سادسا : ان الكتابات المنصفة عن الاسلام انمـا جاءت تلقائية وبغير دافع مادى على الاطلاق .

سابعا : مازال كثير من الباحثين يطمئنون الى كلمة الكاتب الغـربى ويرونها حجة فى البحث ودليـلا أكيـدا على الحقيقة ، وقد دفع هـؤلاء المنصفون بعض كتابنا العرب الى اكتشاف الحقيقة التى كانت بين أيديهم أصلا من قبل ولم ينبهوا اليها .

ثامنا : ان وجهة النظر الأخرى اذا كانت منصفة ربما تكون أكثر جرأة وحيوية من كلمة صاحب القضية ، وفى الكلمات المعروضة هنا تقـدير لاحد له لجوانب من الفكر العربى الاســلامى ما نزال نحن نتحاماها ولا يكاد البعض يعرض لها بمثل هذا الايمان ، بينما يؤمن بها هؤلاء الكتاب .

هذا ، ولا يمنع ذلك من الاشارة الى أن هذا التيار الجديد فىالفكر الغربى لانصاف الاسلام مازال ضعيفا ازاء كتابات خصوم الاســلام من المبشرين وبعض المستشرقين وكتاب الاستعمار والتغريب ، ولكن من المعتقد أن يصبح يوما مصدرا ثابتا للضوء فى مجال الحيرة التى تمر بها الانسانية اليوم وتتطلع من خلالها الى نور جديد .

المؤلف

الباب الاول

القرآن وثيقة الاسلام الخالدة

لكل دين : نبى وكتاب ، ودين الاسلام خاتم الأديان : ارسل الله به رسول الله محمدا ، وانزل عليه القرآن نبراسا لهذه الرسالة العالمية الخاتمة ٠ فالقرآن كتاب الله الخالد الذى أنزل منجما فى اثنين وعشرين سنة واثنين وعشرين يوما تبتدىء من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه فى غار حراء اول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم ٠ الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » سورة العلق ٠ وتنتهى بتاسع ذى الحجة يوم الحج الاكبر من السنة الثالثة والستين من ميلاده صلى الله عليه وسلم حيث نزلت آية الختام « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » سورة المائدة ٠

وقد انتظم القرآن الكريم منهج رسالة الاسلام : عقيدة وعبادة وتشريعا واخلاقا ، ورسم للانسانية طريقها الى الحق والعدل والحرية ، على ذلك النمط الذى اختاره الحق تبارك وتعالى فى أسلوب القرآن ، وقد احيط القرآن منذ نزوله بقدر كبير من التمييز والأفراد ، حتى أن الرسول نهى عن ان يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن ، وقد تم تدوين القرآن كاملا باشراف رسول الله وتحت رقابته فسلم من كل ما تعرضت له الكتب المقدسة ٠

نزل القرآن الكريم بلغة قريش وهى افصح اللهجات العرب ، وآيته البالغة انه نزل بتراكيب لغة العرب ولكنه جاء مخالفا لكلامهم فى الطريقة والمضمون وان جانسها فى المادة والتركيب وهذا هو التحدى الذى واجههم ، فلما عجزوا عن بلوغ مثاله آمنوا بانه منزل من عند الله ٠

واعظم آثار القرآن على اللغة العربية أنه حفظها من الضياع وكفل لها الجدة وحرسها عبر الزمان وكفل لها البقاء ، وخاصة فى أزمان الغزو وأبان غلبة اللغات الفارسية والتركية ، كما حفظ القرآن اللغة العربية من العجمة حين دخلت فى الاسلام الامم والشعوب ، وحين اختلفت لهجات الامم ظل الاسلام قادرا على حفظ وحدة اللغة العربية دون أن تتحول الى لهجات اقليمية ، ولقد أتاح القرآن للغة العربية ان تكون لغة الدين ولغة العلم ، ولعل اللغة العربية هى اللغة السامية الوحيدة التى ظلمت على مدى أربعة عشر قرنا مرتبطة بمفاهيمها الاساسية دون ان يطرأ عليها أى تغيير ، اذ ظلت محتفظة باسسها

من كل تبديل ، ومن هنا فان مقاصد القرآن الكريم مازالت – وستظل – باقية حية على نفس الصورة التى أنزل بها الوحى .

ولذلك فمن الاهمية بمكان أن يبحث المفكرون الغربيون فى تاريخ القرآن وفى مضمونه وان يحاول الكثير من خصوم الاسلام اثارة الشبهات والشكوك حوله ، ومن الحق ايضا ان يقال ان هناك من الباحثين من استطاع أن يهتدى الى عظمة القرآن وان يقدره حق قدره وأمامنا ثلاثة من المفكرين الغربيين الذين استطاعوا أن يتناولوا مباحث القرآن بشىء من الانصاف يكشف عن تيار واضح دخل الى الفكر الغربى وأثر فيه .

فالمعروف أن القرآن الكريم قد ترجم منذ أكثر من ستة قرون الى اللغات الاوروبية المختلفة ، وان ترجمته كانت تهدف الى الكشف عن عقلية المسلمين وجوهر تفكيرهم ، وكان يصاحب هذا العمل الكثير من التحيز والخصومة ، وقد مر هذا الدور وانتهى الى دور آخر يتمثل فى كتاب اتيح لهم ان يجدوا فى انفسهم القدرة على ان يقولوا الحقيقة .

وهذا « فيليب دى طرازى » فى بحثة التاريخى عن القرآن الكريم يحاول الكشف عن عظمة القرآن الكريم وتميزه دون سائر الكتب المنزلة الأخرى ويرسم علاقته باللغة العربية وأثره فيها ، وعنده ليس هناك كتاب عربى أثار هِمم العلماء والباحثين ، مسلمين وغير مسلمين فى جميع انحاء العالم كما اثارها القرآن منذ صدور الاسلام الى اليوم .

يقول تناول كثير من الباحثين الغربيين والمستغربين والمستشرقين القرآن الكريم بالدراسة والبحث . وأجريت عشرات الدراسات حول تاريخه ومضمونه كما أجريت ترجمته الى عديد من اللغات ، وقام البعض بتبويب آياته على أبواب وفنون ، أما هذا البحث الذى نعرضه فقد حاول كاتبه أن يكشف فى وضوح عن عظمة هذا الكتاب فى مجال كونه مصدر اللغة العالمية للمسلمين والعالم الاسلامى .

يقول « القرآن الكريم هو الكتاب الذى يقدسه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ويعتقدون اعتقادا راسخا أنه أنزل على النبى (محمد بن عبد الله) وانه آخر الكتب السماوية نزولا ، وسمى القرآن الكريم : كتابا

وفرقانا على أساس ما ورد فى سورة آل عمران . وقد ضبطه الخليفة عثمان وكتب منه أربع نسخ بعث بها الى الأمصار وأمر الناس أن يجعلوها أساس مصاحفهم ، ومن المقرر الثابت أن للقرآن فضلا عظيما فى تأليف شتات العرب وجمع كلمتهم . مع الأمم المغلوبة المتباينة فى لغاتها وأجناسها وأوطانها فكون من مجموعها عنصرا جديدا مستقلا ومن المقرر أنه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى فى الخافقين ، ولولا القرآن لما أقبل الوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة ، وكتابتها ودرسها والتعامل بها .

وعنده أن القرآن عزز الجامعة العربية وصان عنصرها وضمن سلامتها على توالى الزمان . ذلك ان الاسلام فرض على كل مسلم أن يدرسه ويجيد قراءته ، قبل أى علم من العلوم البشرية ، هكذا حفظ التفاهم بالعربية بين الشعوب الاسلامية وغيرها من الشعوب .

وما أن تقهقرت الدول العربية وتقهقرت معها الحضارة الاسلامية القديمة خيف أن تندثر لغة تلك الدول وتندمج فى لغة الشعوب المغلوبة على أمرها . ذلك أن اللغة العربية استعصت على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الرواسى خلافا لما انتاب لغات الأقوام الذين اندمجوا فى العرب بعد الاسلام كالروم والسريان والأقباط والأنباط والصائبة واليهود وغيرهم من الدول والشعوب .

ويقول : ومن روائع تأثير القرآن أن أئمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية ويحافظون على تجويده ويشرحون أساليبه واذا أمعنا الفكرة فى أولئك المسلمين غير العرب ألفيناهم منتشرون فى أغلب الأقطار شرقا وغربا . أعنى فى تركيا وايران والكردستان وأفغانستان وبلوخستان وفى روسيا والبلقان وجاوة والصين واليابان وبعض أنحاء أوربا وأمريكا واستراليا .

وتلك مزية انفرد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة ، فالتوراة مثلا لا يقرؤها بلغتها العبرية الا أحبار اليهود ، ونفر ممن تفرغوا لدراستها أما

سائر اليهود فان كلا منهم لا يقرأ التوراه الا بلغة سكان البلاد التى يعيش فيها .

وكذلك المسيحيون فى أنحاء العالم بأسره فانهم يقرأون كتابهم الانجيل مترجما الى اللغة الجارية الاستعمال لدى كل شعب ومن هذا يتضح ان القرآن وحده هو الكتاب الذى جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطانهم وأحدث انتشاره تأثيرا كبيرا فى أخلاق الشعوب التى دانت بالاسلام وعقولها وآرائها وميولها .

ويرى طرازى ان الصفة القرآنية تتجلى دائما فى كتاب الاسلام ومؤلفاتهم حتى اذا كتبوا فى موضوعات لا صلة لها بالدين ، تشهد على ذلك مصنفاتهم فى الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطب والفلسفة والتاريخ وغيره حتى الصرف والنحو .

وخلاصة القول عنده أن « القرآن » فى لغته العربية البحتة له تأثير عميق فقد حرص المسلمون بقوة القرآن الكريم وما برحوا يحرصون على سنن الاسلام وفرائضه فى كلياتها وجزئياتها واولوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته وأجزائه وألفاظه وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته وتوفروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصاريحه وكناياته ودقائقه ، كما أقبل فريق كبير من أئمة الاسلام وعلمائه ومفكريه فى بلاد المشرق منذ العصور الغابرة على دراسة القرآن وأمعنوا النظر فيه وتعمقوا نواميسه وشرائعه . ثم كتبوا عنه الكثير فى تصانيفهم وفتاويهم الشرعية واتخذوه دستورا فى بعض القضايا والفرائض المدنية .

***

وقد تفرغ بعض كبار رجال الدين من النساطرة من انشاء قوانين مدنية لملتهم من أحكام القرآن وسننه وتصدى غير واحد من قدماء مؤرخى النساطرة لذكر القرآن وتأثيره فى القبائل العربية وفى الشعوب المجاورة لها ولميخائيل الكبير بطريرك السريان (١٢٠٠ م) عدة أحكام مدنية استخلصها من القرآن وعمل أبناء ملته بموجبها . وجاء بعده أبو الفرج بن

العبرى (١٢٨٦ م) فخلف فصولا ممتعة فى الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن الكريم وخصص المؤرخ الرهاوى السريانى فصولا جمة فى مؤلفه (تاريخ الأزمنة) لذكر القرآن ونواميسه وأحكامه ونبغ فى الملتين اليهودية والقبطية طائفة معتبرة من الكتاب والأعلام .

هؤلاء الأعلام والكتاب تصدوا لدراسة القرآن الكريم فى المشرق واذا انتقلنا من الشرق الى الغرب رأينا رهطا من نوابغ المستشرقين ينافسون المسلمون فى دراسة القرآن وشرحه وتحليله ويعتنون بتدوين تواريخه واكتناز مخطوطاته ومن ذلك أن المستغرب بابا غاتينى الذى قام بطبع (القرآن) فى مطبعة البندقية منذ القرن السادس عشر . ولم يقتصر علماء الاستشراق على طبع نصوص القرآن فقط بل وضعوا تآليف ضافية وافية فى تفسيره وتعديد مزاياه .

ولسنا نعرف كتابا عربيا آثار همم العلماء والباحثين فى أربعة أقطار المسكونة كما أثارها مصحف القرآن منذ صدور الاسلام الى اليوم .

تلك حقيقة صادقة لا تفتقر الى برهان يسندها أو حجة تدعمهاولسنا نعرف كتابا عربيا أثار هذه الهمم التى شملت المسلمين وغيرهم على السواء فأكبوا على تلاوته وبالغوا فى دراسته ، مثل القرآن .

٢ — وفى بحث للكاتب الفرنسى مارسيل كابى قام بترجمته العلامة فريد وجدى : يشهد الكاتب بأن القرآن كتاب موحى به وانه يفوق ما عرف من هذا النوع كثيرا « فان العقيدة التى يثها تصلح ان ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية . وهذا هو سر قوة الاسلام وسماحته ووحدته . »

وهو ينفذ الى رأيه فى وضوح فيقول : ان القرآن يحمل الى الناس اصول العدالة فى النظام الاجتماعى الذى يقوم بين الافراد والجماعات . وهو — أى القرآن — يفرض على الجماعة حماية الافراد . وهو بهذا الاساوب يوافق فى جوهره احدث المناهج الاجتماعية العصرية .

ومن حق ان يقول مارسيل كابى ان القرآن سبق المناهج الاجتماعية العصرية حين أقر أسلم الأنظمة وأصلحها لقيام الروابط بين الأفراد والجماعات .

ويتلفت كابى الى ميزة الاسلام الكبرى فيقول : ليس فى الاسلام رهبان ، ولكن فيه شراح ومفسرون لكتابه ، ثم يعود مرة أخرى الى مفاهيم القرآن كما استطاع أن يفهمها فيقول : نظم القرآن حياة كل فرد وحياة المجموع ، ودعا الى الحق والواجب واحتفظ بالحب لله وحده .

ثم يقول : « ان القرآن لا يرى وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات فى المجتمع ، وطائفة أخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق » وعندى ان هذا هو سر بقائه ونفاذه الى اليوم ، بالرغم من تقلبات التاريخ .

ثم يصور حياة المسلمين فى ظل الروح الاجتماعية التى فرضها الاسلام على اهله فيقول : تأمل هذه الملايين من المسلمين تدعى خمس مرات فى اليوم لأداء الصلاة فيجيبون داعيها ويتوجهون صوب الكعبة ، وينتظمون فى صلاة واحدة ، يركعون ويسجدون جميعا على نحو واحد ، ويدينون جميعا بعقيدة واحدة وشريعة واحدة معترفين جميعا بالعقد الاجتماعى الذى يربطهم خلال هذه الحركة اليومية الهائلة يشعر كل واحد انه تحت نظر الجميع لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعى هو الرأى العام فى الاسلام ، ثم يقول : انه لا يوجد فى العالم رأى عام له مثل هذا السلطان الذى يسرى فى المجال الادبى والاجتماعى على حد سواء ، فالاسلام ليس وقفا على نظامه السياسى ولكنه عقيدة وشريعة ووحدة اجتماعية » .

٣ — أما الباحث الفرنسى ل. ا. سيديو مؤلف كتاب (تاريخ العرب العام) فانه حين يتناول فى كتابه أثر القرآن فى حياة المسلمين يصل الى بعض الحقائق الجديرة بالتسجيل . فيقول :

الحق انك لا تستطيع أن تدعى أن محمدا ترك واحدة من الحقائق الكبرى دون أن يعلنها على رؤوس الاشهاد والحق انك لا تجد فى القرآن من العقائد والمبادىء والشعائر ما هو غير منسجم مع ميول الأمة العربية .

ويحيط المسلمون القرآن بأعظم تقديس ، فلا يفتحون المصحف الا بعد الوضوء ومن القرآن يستنبط المسلمون قسما كبيرا من عباداتهم ويزين

المسلمون جدر مساجدهم وأعلامهم ومبـانيهم بالآيات فتذكرهم بما هـو واجب عليهم نحو الله ونحو بنى ملتهم ونحو أنفسهم .

ويتسم الاسلام ببساطة هى مقتضى العجب فقد بنى الاسلام على قواعد خمس : شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان .

ويشير سيديو الى ان التوحيد هو أبرز مبادىء الاسلام واليه أشار القرآن فى عديد من المواضع واليهدعا الرسول النـاس واليه يرجع سبب سمو الاسلام على جميع الأديان ويقول :

وقد أعلن محمد صـحة كتب النصارى واليهـود ، وأشـار الى أن (القرآن) جاء متمما لما تقدمه ، ومحمد اذ كان رسول الله الخـالق ، بلغ ان الله لا ولد له ، وان اله الكون واحد ، وان الله مصـدر كل قوة ، وصحف القرآن توحى بمحبة شديدة لله ، ويود محمد لو أن يجتذب النـاس الى عبادة خالق كل شيء بغير واسطة ، فلم يأل جهدا فى الدلالة على قدرته ، داعيا الى النظر فى عجائب الخلق .

ويرى سيديو ا نمفهوم القـدر فى الاسلام مختلف عن مفهوم الجبرية وان ليس فى القدر الاسلامى ما يميت شجاعة المسـلم أو يؤدى الى فتـور همته فهذا القدر مرادف لسنة الكون التى تهيمن على جميع الناس وتضع حدا لأعمالنا ، ويرد على القائلين بأن القرآن ينكر حرية الانسـان وارادته وانه يحصر الانسـان ضمن دائرة من عدم الاكتراث سلبية فيقول : ونحن لا نرى ذلك من الحق ونرى أن القرآن يذهب الى حرية الانسـان وتأثير ارادته فى عمل الخيـر والشر ويجب أن نعتـرف بأن محمـدا أثبت خـلود الروح : ومن بؤس الحيـاة ألا يفكر الانسان فى المستقبل ومبدأ المستقبل من أقوم مبادىء الأخلاق ومن مفاخر محمد أن أظهره قويا أكثر مما أظهـره أى مشرع آخر .

ويستطرد سيديو فى الحديث عن فضائل القرآن « وفى القرآن حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقى ، وفى القرآن دعوة كبيرة الى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم وفى القرآن مقت للعجب والغضب . وقد دعا القرآن فى صراحة الى تحريم الخمر والميسر .

وعرض سيديو لموقف القرآن من المرأة وعارض الرأى القائل بأن ما تتسم به حياة المرأة فى عصور الضعف التى مرت بالعالم الاسلامى هو من أثر الاسلام ، وأعلن سيديو ان الاسلام قد عالج مسألة تعدد الزوجات بحكمة بالغة ، وقد كان عدد الزوجات قبل الاسلام لا حد له .

وأشار الى ان القرآن قد رفع شأن المرأة ،وجعل حصة الأنثى فى الميراث تعد نصف حصة الذكر ، مع ان البنات كن لا يرثن فى زمن الجاهلية ، واذا كان القرآن قد جعل الرجال قوامين على النساء فانه قد اعطى للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها .

***

وأشار سيديو الى عناية القرآن بالأبناء فقال : لا شيء ادعى لراحة النفس من عناية القرآن بالأولاد فقد حرم عادة « الوأد » واهتم بحال اليتامى وكان « محمد » يجد فى ملاطفة صغار الأولاد أعظم لذة . وأشار الى ان الزواج فى الاسلام لا تحوطه طقوس معقدة ، ويكفى لاتمامه « ايجاب وقبول من الزوجين امام شاهدين وقال ان القرآن حرم الزواج من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات .

واشار سديو الى ان الاسلام أحل الطلاق ولكنه جعل ذلك مشروطا ببعض القيود حتى يمكن الرجوع فيه عند الطيش والتهور — وجزاء الزنا صارم فى القرآن وللقرآن نصائح غالية فى سورة النور .

وقال : وأمر القرآن بأن تكتب العقود أمام شهود وأعلن فساد البيوع التى تتم بتغرير . وحظر الاحتكار وحبس الأقوات . ولم ينظم القرآن صلات المسلمين بعضهم ببعض فقط . بل نظم صلاتهم بغير المسلمين .

ومما تقدم نرى أن القرآن أبصر كل شيء ، وأنه لم يهمل أمرا دينيا أو مدنيا أو حربيا . وترى السلطة الروحية فى قبضة رجل واحد ، ولاترى سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات .

وعارض سيديو ما جاء فى دعاوى بعض المؤرخين من ان القصص القرآنية مقتبسة من التوراة : وقال ان منهج القرآن فى عرض هذه القصص مختلف وبعيد عن طابع الاقتباس .

وأشار الى أن « القرآن » كان عاملا هاما فى ربط جميع المسلمين بقاعدة مشتركة وانه وحدها تحت لواء واحد ، وجعل بينها تضامنا قويا ، حملها على أن تقلع عما تعودته من الأثرة ، والزمها الامتثال لنظم واحدة عادلة ، فنزع من صدورها الاحقاد ، مما جعلها تتضافر على بناء حضارتها ، وقال : ومن هنا يبدو الاختلاف الواضح بين القرآن وبين التوارة التى أريد قياسه اليها ، ودافع سيديو عن الرسول وعن اتهام الغربيين له بالقسوة ، وقال ان ذلك من التجنى على حقائق التاريخ فان الرجل الذى ألغى عادة الثأر الموروثة الكريهة وعادة وأد البنات الفظيعة لا يمكن ان يوصف بالقسوة فضلا عن العفو الكريم الذى شمل به أعداءه بعد فتح مكة والرحمة التى حبا بها كثيرا من القبائل فى الحروب .

وقال : ان محمدا لم يسء استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم ولم يأل جهدا فى تقويم من يجور من اصحابه وانه رفض قتل الاسرى فى بدر وعفا عن قاتل حمزة وانه حينما حل وقت مجازاة بنى قريظة ترك الحكم فى

مصيرهم لحليفهم القديم سعيد بن أبى معاذ ، وأنه لم يرفض قط ما طلب اليه من اللطف والسماح وأنه تبرأ مما صنع خالد حين أثخن فى جذيمة .

وليس من الصواب ما ادعى بعض الكتاب من أن محمدا قد أصابته رجفة قبل معركة بدر ، فما أكثر ما عرض فى حياته للخطر انتصارا لدعوته فى عهده الأول بمكة وهو لم ينفك عن القتال فى واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه ، ووقع فى حفرة عن ظهر فرسه فقد حافظ على اعتدال دمه حتى بعد ان كب مرة أخرى على وجهه فشقت وجنته بحلق مغفره فنفح بكلامه روح الشجاعة فى أصحابه فنجا بذلك من الموت ، وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله فى معركة (حنين) ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيى قوة ارادته ومتانة خلقه وفصاحته وعبقريته وبساطته . ومن يجهل انه لم يعدل الى آخر عمره عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش وهو ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض .

***

وكان محمد حليما معتدلا . وكان يأتى بالفقراء الى بيته ليقاسمهم طعامه وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله وكان لا يضجر من طول الحديث وكان لايتكلم الا قليلا فلا ينم مايقول على كبرياء أو استعلاء وقد دل محمد على أنه سياسى محنك .

٤ — ويقول المؤرخ اميل درمنجم فى معرض حديثه عن القرآن فى كتابه « حياة محمد » لا يزال القرآن معجزة محمد الوحيدة ، فهو يثير الى الآن ساكن من يتلوه ، ولو لم يكن من الاتقياء العابدين ، فأسلوبه المعجز ، وقوة ابحاثه لا تزال لغزا ، لقد كان محمد يتحدى الانس والجن ان يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدى اقوى دليل على صدق رسالته » وقد اجمع

معاصروه على أن ما فى القرآن من تعاليم ، ليست من صنع محمد ، هـذه التعاليم التى رقت عقول الملايين من البشر ، ولا تزال ترقى كل يوم شعوبا متأخرة باشرابها الحقـائق الضرورية للذات البشرية من الوجهـة الدينيـة والاجتماعية والخلقية .

وفى مجال استعراض رأى المفكرين الغربيين المثقفين : نجد البحث يتطرق الى علاقة القـرآن باللغة العربية • وفى هـذا يتساءل الدكتـور ستنجاس :

***

ماذا كان مصير هذه اللغة العربية لو لم يكن القرآن ؟ .

ويجيب : نحن لا نذكر أن اللغـة العربية انتجت قبـل القرآن ألوانا عديدة من الشعر هى غاية فى الحسن والرقة ، الا انها كانت كلها محفوظة فى اذهان الناس وغير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعر ليس هو الأدب كله وكان العـرب منقسمين الى قبـائل متفرقة مختلفين فيما يبينهم وفى ظروف طاحنة دائما مما أثر على كيانهم وعلى ألسـنتهم المختلفـة . ولولا القرآن لذهبوا وذهب معهم لسانهم وشعرهم ولكان للسائح المجازف مجال للبحث والمخاطرة فى سبيل جمع ما باد من هذا الكنز وزال بسبب شحنائهم وقتالهم •

ولما جاء القرآن أبقى بطبيعته على هـذا التراث وأوجـد من مختلف اللهجات العربية لغـة موحدة مكتوبة هى لغـة الأدب العـربى الى اليـوم وزاد على ما كان موجودا من الشعر شيئا كثيرا وجعل له اساسا يرتكز عليه بل انه نظم الحياة الخاصة والعامة للمسلمين فى صـور كلها أدب وحكمة ونثر عذب لا يزال حتى يومنا هذا نبراسا للأدب العربى فى أعلى صـوره .

من خلال هذه النظرات المختلفة لعقول وافكار غير عربية ولا مسلمة نجد ضوءا جديدا يرســله القرآن الكريم فى قلوب المتصــلين به حتى من غير قارئيه باللغة العــربية : « لغة القــرآن » فكيف لو أتيح لهم ذلك عن طريقها .

***

الباب الثانى

محمد رسول الله

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مصدرا غنيا لدراسات عشرات الباحثين والمؤلفين والكتاب فى كل اللغات . وقد حظيت بقدر بالغ من النظر فى القرون الاخيرة ، وواجهها كتاب الغرب على انحاء مختلفة ، ولكن عددا كبيرا من المنصفين قد افاضوا فى التقدير والاعجاب ، وفى مقدمتهم الكاتب توماس كارليل الذى كان من أوائل كتاب أوربا الذين انصفوا الاسلام والنبى ((وقد عاش كارليل بين ١٧٩٥–١٨٨١)) وألف كتابه الابطال وعبادة الابطال باللغة الفرنسية وترجم على عدد كبير من اللغات وقد تناول فيه عددا من البطولات فى مختلف الصور واختار محمدا صلى الله عليه وسلم لفصله الحافل ((البطل فى صورة نبى)) وقد ترجم هذا الفصل عام ١٩١١ المرحوم محمد السباعى فى مجلة البيان التى كان يصدرها الاستاذ عبد الرحمن محمد كما تناول رسول الله بالتقدير كثير من الباحثين فى مقدمتهم : جوستاف لوبون ، وايتان دينيه واميل درمنجم وكانت لبرناردشو ولين بول وبوسورث سميث ولامرتين كلمات مضيئة فى تقدير الرسول الكريم وكذلك تناولته باحترام كبير الكاتبة الانجليزية انى نيرنت .

أما ((توماس كارليل)) فانه يبدأ من حيث انتهى سابقوه من خصوم الاسلام فانحى عليهم باللائمة وشكك فى أقوالهم وعرض لما نسبوه – كذبا وبهتانا – الى الرسول الكريم بنقد منطقى منصف .

يقول : لقد أصبح من اكبر العار على ابناء عصره ان يصغى الى ما تردد من اتهامات كاذبة وجاء الاوان لكى تحارب الاقلام المنصفة مثل هذه الافتراءات وترد الحق الى نصابه .

ويقول : ان الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالهم خلقهم الله الذى خلقنا ، افكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والاحصاء ، كذبة ، وخدعة .

أما أنا فلا استطيع أن أرى هذا الرأى أبدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها الا تخلق .

وعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئا ألبته من أقوال أولئك السفهاء ، فانها نتائج جيل كفر ، وعصر جحود والحاد ،

وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، ولعل العالم لم يرقط رأيا أكفر من هذا وألأم . وهل رأيتم معشر الاخوان ان رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجيبا ، والله ان الرجل الكاذب لايقدر أن يبنى بيتا من الطوب ، فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذى يبنيه بيتا ، وانما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ، وانى لأعلم أن على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة والا أبت أن تجيب طلبته، وتعطيه بغيته .

أما الرجل الكبير خاصة فانى أقول عنه يقينا انه من المحال أن يكون كاذبا فأنا أرى الصدق أساسه .. وأساس كل ما به من فضل ومحمدة .

***

وعندى أنه ما من رجل كبير «ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كروميل» كفء للقيام بعمل ما الا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول باعثه على محاولة ما يحاول ، أعنى انه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شىء .

بل أقول ان الاخلاص — أعنى الاخلاص الحر العميق العظيم الكبير — هو أولى خواص الرجل العظيم كيفما كان واخلاص الرجل الكبير هو مما لايستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به .

ولما شب محمد — صلى الله عليه وسلم — وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارته وفى الثامنة عشر من عمره نراه فارسا مقاتلا ، يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين الى مشارف الشام ، اذ وجد الفتى نفسه هناك فى عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا فى نظره .

ولست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس « بحيرا » الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار ولا ماذا يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما ، فان محمدا لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشر من عمره ، ولم يكن يعرف الا لغته ، ثم لا ننسى انه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا .

***

وتظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما أمكنه تعلمه هو عيشة السحراء وأحوالها وكل ما وفق الى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ويلتقى بفؤاده من هذا الكون .

ويقول توماس كارليل ان بيان محمد واحاديثه ليست مقتبسة من فكر انسان آخر فهو لم يغترف من مناهل غيره وقد لوحظ عليه ذلك منذ كان شابا مفكرا ، وقد سماه رفقاؤه بالأمين وانى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت ، فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص ، لا يتناول غرضا الا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته ، وقد رأيناه طوال حياته رجلا راسخ المبدأ ، صارم العزم بعيد الهمة كريما برا رؤوما فاضلا ، رجلا شديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس .

ويدحض كارليل الزعم الباطل الذى يردده بعض كتاب الغرب من انه قام بدعوته ابتغاء عرض الحياة والسلطان ويقول : كلا وأيم الله ، لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور .

ولقد كان سر الوجود يسطع لعينيه ولم يك هنالك من الأباطيل

ما يحجب عنه ، وأهم خصائص البطل وأول صفاته وأخراها هى أن ينظـر من خلال الظواهر الى البواطن ، فقد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة :تضحية النفس فى سبيل الله وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض ، نعم هو نور الله قد سطع فى روح هذا الرجل فأنار ظلماتها ، ولا شك أنالعلم والنفاذ الى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار .

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه ، فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون : « ما كان الدين لينتشر لولا السيف » .

***

وأرى أن الحق ينشر نفسه ، ولندع الحقائق تنشر نفسها وسلطانها ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها لأنها لن تهزم الا ما كان يستحق أن يهزم ، وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها بل ماهو أحط وأدنى فانها حرب لا حكم فيها الا للطبيعة ذاتها وعلينا أن ننظر الى ما كان من سرعة الاسلام الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء والعروق ، اذن لأ يقنا أنه كان خيرا مما كان هناك ، لقـد جاء الاسلام على تلك الملل وان حل فابتلعها .

وينطرق كارليل الى نظرة منصفة للقرآن فيقول :

أما « القرآن » فان فرط اعجاب المسلمين وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة ، هذا وان لترجمته تذهب بأكثر جمال الصنعة وحســن الصياغة ، ولقد رآه العرب من المعجـزات ، وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أحد لكتاب سماوى .

وقد زعم براديه وأمثاله أن « القرآن » طائفة من الاخاديع والتذاويق لفقها محمد لتكون اعذارا له وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته . ولكنه قـد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق لا يرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل .

« والقرآن » لو تبصرون ما هو الا جمرات ذاكيات ، الاخــلاص المحض الصراح يظهر لى أن فضيلة القرآن التى حببته الى العربى المتوحش وهى أولى فضائل الكتاب أيا كان ، وهى منشأ فضائل غيرها بل لا شىء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى ، ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر يجرى فيه من بدايته الى نهايته . ثم يتخلله نظرات نافذات .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا وشد ما نجير ونخطىء اذا حسبناه ولا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ ، كلا ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت .

لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وســائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وانهم ليذكرون أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده . فهل بعد هذا مكرمة ومفخرة ، فحبذ محمدا من رجل خشن اللباس خشن الطعام ، متبتل فى الله قائم النهار ســاهر الليــل دائب فى نشر دين الله غير طامح الى ما يطمح اليه أصاغر الرجال من رتبة أو سلطان ، غير متطلع الى ذكر أو شهوة كيفما كان رجل عظيم ، والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توفيرا واحتراما ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم ثلاثا وعشرين حجة ، وهم ملتفون به يقــاتلون بين يديه ويجاهدون من حوله ، وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وقد كانوا أطوع له من بنانه .

***

وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمــد قيصر من القياصرة بتــاجه وصولجانه لما كان مصيبا فى طاعته مقدرا لما ناله محمد فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

ثم يصــور كارليل مشاعره الذاتية ازاء النبى صلى الله عليه وسلم فيقول :

وانى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول الا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه ولم يكن متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وقياصرة العجم يرشدهم الى مايجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة .

ولقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور وأيقظ به من العرب أمة هامدة وارضاها مدة ، فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة والضعة رفعة ، والضعف قوة ووسع نوره الأنحاء وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب وماهو الا قرن بعد هذا حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

***

وكذلك الايمان العظيم ، وما زال للامة رقى فى درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد ألستم ترون كانما وقعت شرارة على تلك الرمال فاذا هى بارود سريع الانفجار ، واذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى .

ولطالما قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس فى انتظاره كالحطب ، فما هو الا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

وعلى كل حال فهذا الدين فيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها فاعرفوا له قدره ، ولا تبخسوه حقه ، وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ، ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم ، ولا أحسب أن أمة من الامم قداعتصمت بدينها اعتصام المسلمين باسلامهم فهم يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد .

وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة : من «السائر» فيجيبه السائر « لا اله الا الله » وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن فى آناء الليل وأطراف النهار فى تلك الملايين الكثيفة .

أما الدكتورة انى بيزنت الكاتبـة الانجليزية فانهـا قد اهتدت الى عظمة الاسلام ورسوله حين راحت تقارن بين الأديان وتراجع ماكتب عنها ، وكانت انى بيزنت قد وقفت حياتها على دراسات العلم والفلسفة ، وقامت بتأليف بضعة وعشرين مؤلفا لها مشهرة عالميـة وترجم بعضها الى لغـات عديدة وتوفيت عام ١٩٣٣ .

اما كتابها « الديانات الموجودة فى الهند » فقد افردت فيه فصلا عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم تناولت فيـه بالتحليل شخصية الرسول الكريم ، تقول :

توجد أربع مسائل تجب دراستها فى كل دين وهى (١) حياة مؤسسها الذى لابد من أن تنطبع صورة روحه وأخلاقه عليها (٢) الناحية العامة لذلك الدين (٣) فلسفة الدين (٤) ناحيته القلبية وهى مظهر الحاجة الخالدة للنفس البشرية التى لاتفتأ تنزع الى الاتصال بمصدرها الأول . فلندرس الاسـلام تحت ضوء هذه التقاسيم .

أتبعنى أيها القارىء الى سوريا وبلاد العـرب فى القرن السـادس الميلادى ، وانظر فى حالة بلاد العرب الجميلة وسوريه فانك تجـد الحرب الدينية يتأجج سعيرها فى كل مكان . تهدم البلدان وتفـرق بين النـاس . معـارك وحشية دموية وأحقاد تتوارث من جيل الى جيل ، غارسـة بذور الشقاق بين الأجيال والقبائل والشـعوب . وانظر الى بلاد العـرب ، تلك البقعة التى تسود فيها وثنية وحشية قاسية تسمح بالتضـحية بالنفـوس البشرية لمرضاة الأوثان . حيث كان عباد الله يقيمون الولائم بأجساد الموتى وحيث كانت الشهوات قد حلت محل الحب الانسانى ، والاباحة محـل الحياة البيتية ، وحيث كانت الحروب الطاحنة التى لاتخمد نارها تشـب لأتفه الأسباب ، وحيث كان الرجل يقتل قريبه ، والجار يهلك جاره ، حيث كانت الحياة على وجه الاجمال قد فسـدت الى حد لا يمـكن أن يصـفه الانسـان .

فى معمعان هذا السعير المحرق من الشهوات وسفك الدماء ، والاباحة الحيوانية ، والقسوة البهيمية ، ولد طفل فاتحا عينيه البريئتين للنور ، وكان ذلك فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ فى مدينة مكة من قبيلة قـريش وكان أبوه قد مات قبل ميلاده ببضعة أسابيع ، ولحقت أمه بأبيه بعد بضع سـنين . كبر هذا الطفل وترعرع فى بيت جده هادىء النفس ، كثير الصـمت ، ذا طبع جذاب لطيف ، صبورا ، محبا الى قلوب الناس ، ولم تمض الا بضع سنين حتى مات جده ، فكفله عمه أبو طالب ، وهو أنبل جميع أقاربه طبعا ، وأحناهم عليه نفسا ، كفله بعد ان ذاق مرارة اليتم مرتين بل ثلاثا ، فلبث عند عمه حتى بلغ سن الشباب ، فسافر الى الشام لمزاولة الاعمال التجارية متأملا فى كل ما هو حوله من مشاهد بنظر ثاقب نفـاذ . فلمـا بلغ الرابعة والعشرين سافر الى الشام فى تجارة « خديجة » ، ولما عاد وجدته من الأمانة والقناعة والطهر والاستقامة بحيث ارتضته زوجها لها ، ولم يكن « محمد » قد أوتى النبوة بعد ، وقد سعدا بزواجهما وعاشا معا عيشة تعتبر مثلا أعلا فى هذه الحيـاة الى اليوم الذى توفيت فيـه خديجة تاركة زوجهـا فى الخميس من عمره .

كان محمد اذا سار فى طرقات مكة احتفت به الصبية وتعلقوا بركبتيه فكان يقابلهم بكلمات طيبة ، وملاطفات تناسب طفولتهم ، ولم يعهد عليـه قط أنه أخلف وعدا أو تجهم فقيرا أو محزونا ، ولكنه كان عنـده لهما من النصح ما يخفف ما بهما ، وقد لقبه جيرانه بالامين الجدير بالركـون اليه وهو أجمل لقب يكمن أن يحصل أنسان عليه .

وكان محمد يفزع الى الصحراء ، شهورا تليهـا شهور ، حتى بلغت خمسة عشر سنة فكان يأوى الى غار فى وسط الصحراء وحـيدا ساكنا متأملا راجيا الله سائلا نفسه عن معنى الرسالة التى يتوقعها :

ويقول : وقد حدث ذات ليلة صافية الاديم ، بينما كان مستلقيا على الأرض أن غشيه نور نزل اليه من السـماء ، واذا بملك كـريم واقف أمامه وهو يقول : « قم انك رسول الله » وأخذ الملك يلقنه ما يجب أن يعرفه

من تكوين للعوالم وخلق الانسان وتوحيد لله ومن ثم أصبح هذا الرجل الذى كان أشد الناس اعتزالا ، أصبح مصدرا لحياة أمة برمتها .

وكانت زوجته أولى أتباعه — واستطاع أن يبنى دولة مهيبة ، ويحمل خلفاؤه الى أوربا « مشكاة العلم » بعد أن انطفأت فيها ، ويقـومون أمام الله بعبادة لم يعهد لها مثيل فى أية ديانة أخرى .

نعم ، فانه يجب عليكم معشر الذين لا يتبعون ديانة هذا النبى العربى أن تحققوا بأنه لا يوجد فى جميع الديانات ديانة توحى الى الآخذ بها عقيدة أبين صحة ، وأعلق بنفس صاحبها من الديانة التى خـرجت من فم النبى العـربى .

ويقول : واذا كان الأمر كما يقول الفيلسوف (تين) : أن العقيدة تثبت صحتها متمثلة فى سيرة أهلها فتأمل فى اتباع محمـد ، وانظر كيف تتحكم أقواله الى اليوم فى أعمال الناس .

لا يوجد مسلم فى الأرض يخجل من السجود فى الصلاة ، وانظر الى أى مدى قهرت العبادة عند اتباعه كل خوف من الموت ، ان مثل هذا الايمان لابد من أن يكون له مستقبل باهر فى هذا العـالم ويجب أن يرفع هـذا الايمان الى كل مكان أرفع من المكان الذى هو فيه اليوم .

مكث محمد يعمل ثلاث سنين فى هدوء ، فلم يزد أتباعه بعد انقضائها على الثلاثين ، فاضطر أن يعلن الدعوة لاول مرة ، فتكلم عن « وحدة الله » ونعى على عادة القربان البشرى ، والانهماك فى الشـهوات ، فاجتمع اليه عدد آخر من الأشياع مأخوذين فى تيار الكلمات التى تنبعث من شـفتيه ، ولكن بقدر ما أصبح كثير الأنصار أخذ الاضطهاد يشتد عليه ، وشرعوا فى تعذيب أصحابه بقسوة يكاد يكون من المحال أن يتحملها الجسم البشرى ، فكانوا يمزقون أجسامهم ، ويطعنوهم بالرماح ويلقون بهم على الرمضـاء المحرقة ، ثم يأمرونهم بأن يكفروا بالله ورسوله فيأبون ، ويموتـون وهم يقولون : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

وكان يوجد بين هؤلاء المضطهدين رجل قطعوا لحمه قطعة قطعة فسأله الذين يتولون تعذيبه وهم يضحكون : ألا تحب أن يكون محمد مكانك وأن تكون أنت فى دارك آمنا فيقول : الله شهيد على ما أقول ، أنا لا أحب أن أكون فى بيتى ومحمد تشوكه شوكة واحدة » .

هذا مثال من الحب الذى كان يبثه محمد فى قلوب الذين يموتون من أجله . أى صنف من صنوف الرجال كان محمد .

أما المصور الفرنسى العالمى (اتيان دينية) الذى أسلم فى الجزائر عام ١٩٢٧ وأعلن اعتناق الاسلام أمام جمهور كبير من الجزائريين والعلماء وأشهرهم على أنه اختار الاسلام دينا قبل سنوات ، ولم يجهر به الا فى ذلك اليوم ، فقد ألف كتابا ضخما باللغة الفرنسية أطلق عليه اسم المحمدية وشاركه فى اعداده صديقه العربى المسلم سليمان بن ابراهيم الجزائرى ، وقد ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود الى اللغة العربية ، وقد تسمى هذا الفنان الفرنسى بعد اسلامه ((ناصر الدين دينيه)) والف كتابا آخر هو (أشعة من نور الاسلام) ترجمه العلامة (راشد رستم) ولهذا الباحث نظرة صائبة فى تقدير رسول الله وشمائله فيقول :

ان دراسة المبتدعات التى دخلت فى تاريخ النبى قد اتاحت لنا ان نكشف عن انها كانت أحيانا وليدة كراهية شديدة للاسلام يصعب التوفيق بينها وبين العلم ، كما انها نظرية بحته تسجل على مؤلفيها جهلا عجيبا بعبادات العرب ، وأنها على تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضا وأخيرا فانهم غلوا فى الخيال فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية ليظهر باجلى بيان صدق تلك الآثار المأخوذة بها .

والحق اننا نرى من بين جميع الانبياء الذين اسسوا ديانات ان « محمدا » هو الوحيد الذى استطاع أن يستغنى عن مدد الخوارق والمعجزات المادية معتمدا فقط على بداهة رسالته ووضوحها ، وعلى بلاغة القرآن الالهية ، وان فى استغناء محمد مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الاطلاق .

ومع ذلك فقد أتى (محمد) بمعجزة ، انها المعجـزة الوحيـدة التى منحت ولكنها معجزة أقضت مضاجع المشركين ، وأعنى بها (آيات القرآن)

ان معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — كانت فى الواقع معجزات وقتيه ، وبالتالى كانت معرضة للنسيان السريع ، بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآيات القرآنية : « المعجزة الخالدة » ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر ، ومن اليسـير على المؤمن فى كل زمان ومكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله تعالى ، وفى هذه المعجزة تجد التعليل الشافى للانتشار الهائل الذى أحرزه الاسلام ، ذلك الانتشار الذى لايدرك سببه الأوروبيون لأنهـم يجهلون القـرآن الكريم أو لأنهم لايعرفونه الا من خلال ترجمات لاتنبض بالحياة فضلا عن أنها غير دقيقة .

ان الجاذبية الساحرة التى يمتاز بها الكتاب الكريم عن أى كتاب آخر لاتحتاج منا نحن المسلمين الى تعليل ، ذلك لأننا نؤمن بأن القرآن كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال العلامة : اتيان دينيه : اناللغة العربية (لغة القرآن) لايوجـد على ظهر البسيطة ما يضارعها غنى وانسجاما ، وعن طريق هذه اللغـة خاطب القرآن الناس جميعا وأملى محمد صلى الله عليه وسلم تعاليمه وأحاديثه بكل مافيها من بلاغة .

ويقول استانلى لين بول : ان أسلوب القرآن — وقد عرفناه عن طريق الترجمات — قد هز نفوسنا ، وان كلماته العميقة قد أثارت فكرنا ، واذا كان أسلوب القرآن قد أحدث مثل هذا التأثير فى نفوسنا — نحن الذين لسنا عربا ولا مسلمين — فماذا ترى تكون قوته وأثره فى نفوس العـرب وهو الذى نزل بلغتهم ، لايستطيع أن يكون أحد لنفسه فكرة مقاربة وان كانت مصغرة ، الا أولئك المسافرون حينما تتاح لهم الفرصة لمشاهدة التأثر الذى يمتلك قلوب قوم ينصتون الى امامهم فى الصلاة وهو يرتل الآيات المقدسة . لقد رأينا الاعراب فور وصولهم من أسفارهم المجهدة وقد كستهم رمال الصحراء يتسابقون الى المسجد يجذبهم اليه كالمغنـاطيس ، صـوت

الامام ، لايسمعون القرآن الا وتمتلك قلوبهم انفعالات هائلة ، هذه الآيات الخارقة ، من المستحيل أن تصدر عن محمد ، وانه لامناص من الاعتراف بأن الله العلى القدير الذى أملى تلك الآيات البينات .

ويقول : لقد حاول بعض كتاب الغرب الغض من قدر النبى ، ولقد قضى كارليل فى كتابه الأبطال على هذا التعصب الذميم ، وتلك الحماقة العمياء ، حين قال : أيستطيع رجل مخادع أن يؤسس دينا ، كلا وربى ، ان رجلا مخادعا لايستطيع أن يقيم بيتا من آجر .

وروى الكاتب كيف أن المشركين من أهل مكة عجزوا عن مقاومة الأثر القاهر الذى تحدثه تلاوة القرآن فى صفوفهم ، فقرروا أن يمنعوا الناس عن الانصات الى الرسول وهو يتلو الكتاب المنزل كعادته على باب الكعبة ، كانوا يجعلون أصابعهم فى آذانهم لكى لايسمعوا ترتيله ، ولكن هل تدرى ماذا كانت النتيجة الغريبة ، لقد أحس هؤلاء الذين حرموا الانصات الى القرآن ، أحسوا هم بالرغبة الملحة تعتمل فى نفوسهم ، فخرج أبو سفيان وأبو جهل والأخنس من بيوتهم ليذهبوا خفية الى بيت الرسول ، وهناك ألصقوا آذانهم بالحائط وراحوا يستمعون الى تلاوة النبى ، وشملهم ظلام الليل فلم ير أحد منهم الآخر ، ولكنهم فى طريق عودتهم عندما أشرق الفجر جمعهم وجها لوجه فتلاوموا . وقال كل منهم للآخر :

— لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى أنفسهم شيئا !

فقطعوا على أنفسهم عهدا غليظا ألا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه الحماقة ..

ولكن ليلة الغد وليلة اليوم الذى تلاها شهدتا نفس الحادث ونفس التراجع والتلاوم .

ويمضى اتيان دينيه فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

كان رسول الله وسطا بين الطول والقصر قوى الجسم ، ضخم الرأس أبيض مشربا بحمرة ، طيب الخلق ، وكانت المعانى تتدفق غزيرة من ألفاظه

المحكمة الموجزة التى تعبر عن مراده خير تعبير . أما سحر بيانه فكان شيئا الهيا ، يغزو القلب ويأسر اللب .

لايقوى أحد على مقاومته ، وكان الرسول لايغرق أبدا فى الضحك ، فاذا اشتد به المرح حجب وجهه بيده ، هادىء الخلق حليم الطبع ، لا تكبر فيه ولا خشونة ، لايدعو أحدا الا أجابه ، يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم الى صدره ، سواء فى ذلك الاشراف والعبيد ، وكانت طبيعته محبة وحنانا .

وكان اذا سمع بكاء طفل ، وهو فى صلاة الجماعة ، أسرع فى صلاته من أجل أن يسمح للأم باسكات طفلها .

وقد حرم أول ما حرم « واد البنات » ، تلك العادة القبيحة القاسية ، ثم وضع حدا لتعــدد الزوجات ، ومن احاديثه « أبغض الحــلال الى الله الطلاق » ، وبفضل تشريعاته أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها ، وتمنح المرأة حق الطلاق اذا لم يوف الرجل بواجباته الزوجية ، وأصــبح المهر لايعطى للأب بل للعروس نفسها ، ومنح الرســول أيضــا المــرأة حق الميراث ، وحقها فيه نصف حق الذكر ، ذلك لأن المرأة لا تدفع مهرا كالرجل: وليست مكلفة بحاجات البيت . وكان الرسول يحب الطيب لأن الطيب يكمل طهارة المؤمن ، وكان محمد يتطيب بالمسك ويحرق فى بيته الصندل والكافور والمسك . ويدهن شعره بالدهون ، ويقص لحيته وشاربه ويمشطها.

وكان له نمط من التألق غاية البساطة ولكنه على جانب كبير من الذوق والجمال وكان يحرم التغالى فى الملبس ، وعلى الخصــوص لبس الحرير ، وكان عدله ورحمته من الشــمول بحيث يتناول الحيوان الأعجم . فضــلا عن الانسان . وكان يقوم بأعماله بنفسه ، يحلب شاته ، ويخصف نعله ، وكان يحمل بنفسه ما يشتريه من السوق .

والحق أن الاسلام الذى جاء به محمد ملائم لجميع الأجناس البشرية فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الاسلام بل كان من ضمنهم ، من هو فارسى كسلمان ، ومن النصارى كورقة ومن اليهود كعبد الله بن سلام ومن الأحباش كبلال ، فدين محمد قد أكد من الساعات الأولى لظهوره ،

وفى حياة النبى ، أنه « دين عام صالح لكل زمان ومكان » واذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس ، كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة والفطرة لاتختلف فى انسان عن آخر ، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة وهو على مافيه من تسامح ، وبساطة سواء بالنظر لمذهب المعتزلة أو بالنسبة لمذهب المتصوفة ، يؤدى للعالم هداية وتوفيقا ، سواء فى ذلك الأوربى المتحضر أو الزنجى الاسود ، من غير أن يعوق حرية الفكر عند أحدهما ، ثم يزيد على هذا بالنسبة للزنجى انتشاله من عبادة الأوثان . ثم هو لا يعوق الرجل العملى ، الذى يرى حياته فى العمل ويعتبر الوقت من ذهب ، ولا يعوق الرجل الصوفى والشرقى المتأمل فى بدائع الصنع فاذا ما دخل الاسلام فى الحضارة الغربية بفضل اشتراكه العظيم فى الحوادث ، سيتضح سناه الحقيقى ، وستعرف الأمم حقيقته التى حجبت زمنا وسيمد الكل أيديهم لمحالفته ، ولو نهض أتباع محمد لرجع لهم عزهم السالف فصاروا أمة لاتعرف الجور . وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم .

ويصور جورج برنارد شو الرسول فى كلمات واضحة الدلالة وكان برنارد شو الفيلسوف الارلندى الأشهر قد طاف بالعالم الاسلامى واقترب شيئا من دراسات الاسلام وقد عبر عن رأيه فى الاسلام :

يقول برنارد شو : لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل زمان ومكان .

لا مشاحة فى أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم ، لقد صور اكليروس القرون الوسطى (الاسلام) بأحلك الالوان ، اما بسبب الجهل أو التعصب .

ولقد درست محمدا باعتباره رجلا عظيما فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى « منقذ الانسانية » وانى لاعتقد أن رجلا مثله لو

تولى حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب الى العالم : « السلام والسعادة » اللذين هو أشد الحاجة اليهما .

وأشار بارنارد شو الى التحول الواضح فى الفكر الأوربى عن طريق بعض المنصفين من الكتاب لقول كلمة الحق يقول :

ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارليل وجوت وجيبون « القيمة الذاتية » لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الاسلام — ولكن اوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا ، فبدأت تعشق عقيدة محمد وعنده أن أوربا قد تذهب فى الأيام القادمة ، الى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى .

وفى الوقت الحاضر دخل كثير من ابناء قومى من أهل اوربا فى دين محمد ، حتى ليمكن أن يقال أن تحول أوربا الى الاسلام قد بدأ ، لقد بدأت اوربا الآن تتعشق الاسلام ولن يمضى القرن الحادى والعشرون حتى تكون أوربا قد بدأت تستعين به فى حل مشاكلها .

يمتد الاسلام الآن من مراكش الى أنقرة ، ومن زنجبار الى الصين . ويخطو فى داخل أفريقيا خطوات كثيرة وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطى بنفسه ، وثبت قدمه فى الكنغو التى صارت بلادا اسلامية باجمعها ؛ أما فى الهند فان التمدن الغربى الذى كان يهدم أركان الوطنية فانه يمهد الطريق للأسلام لا غير ، لقد أفاد الاسلام التمدن ونشر راية المساواة والأخوة ، وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين الانجليز وعما كتبه أغلب السياح عن النتائج الحسنة التى تنجت من الدين الاسلامى ، وظهرت آياتها . فانه عندما تدين به أمم من أمم أفريقيا تختفى من بينها فى الحال عبادة الأوثان وتحرم أكل لحم الانسان وقتل الرجال ووأد الأطفال وتضرب عن الكهانة ، ويأخذ اهلها بأسباب الاصلاح وحب الطهارة ، واجتناب الخبائث والرجس والسعى نحو احراز المعالى وشرف النفس ، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، أما الغلو فى الحرية والجرى وراء الشهوات فلا تجيزه

الشريعة الاسلامية ، والاسـلام هو الدين الذى يعمم النظـام بين الورى ويقمع النفس عن الهوى ويحرم اراقة الدماء والقسوة فى معـاملة الحيوان والأرقاء ، ويوحى بالانسانية ويحض على الخير ، ويقول بالاعتـدال وانى لأعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير وحل مشاكله على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة

***

أما الباحث الغربى بورسوث سميث فانه يصـور فى كلمـات قليلة عظمة محمد صلى الله عليه وسلم حين يقول : كان محمد فى وقت واحـد مؤسسا لامة ، ومقيما لامبراطورية ، وبانيا لدين ، وقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا وأخلاقا عامة وهو كتاب يقدسه الى يومنا هذا سدس مجموع الجنس البشرى لأنه معجز فى دقة الاسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق .

***

وفى كتاب بعنوان محمـد والدين المحمدى بقلم لين بول يقـول : اننـا اذا رجعنا الى التاريخ وحكمناه فى هذه المسألة لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد ، بدليل معاملته للاسرى بعد موقعة « بدر » وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم وعطفه على الأطفال المرضى وحقنه الدماء ، وعفوه عن أولئك الذين قضوا فى محاربته ثمانية عشر عاما ، ولمـا استتب له الأمر ، وجاءه نصارى نجران اليمانيون لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الاسلام ، وأمنهم على أموالهم وأرواحهم ، وأمر ألا يتعرض لهم أحد فى معتقداتهم أو طقوسهم الدينية ، بل أكثر من ذلك ، لم يفرض عليهم أى ضريبة أو جزية .

يقول الشـاعر لامرتين : أى رجل قيس بجميع المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الانسانية أعظم منه ، أعظم من محمد ، لو كان مقياس العظمة هو اصـلاح شعب متدهور ، فمن ذا يتطاول الى مكان محمد ، لقـد سما بامة متدهورة ورفعها الى قمة المجد ، وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم

والعرفان ، لو كان مقياس العظمة هو توحيد البشرية المفككة الاوصال ، فمن أجدر بهذه العظمة من « محمد » الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة واحدة وامبراطورية شاسعة ، لو كان مقياس العظمة هو اقامة حكم السماء فى الأرض ، فمن ذا الذى ينافس محمدا وقد محا مظاهر الوثنية لتصبح عبادة الخالق وحده ، لو كان مقياس العظمة هو الاثر الذى يخلده فى النفوس على مر الأجيال ، فها هو « محمد » يمجده مئات الملايين من الناس من مختلف البقاع مع تباين أوطانهم والوانهم وطبقاتهم .

ويقول أميل درمنجم فى كتابه حياة محمد :

لا يزال القرآن وهو معجزة محمد الوحيدة يشير الى الآن ساكن من يتلوه ، ولو لم يكن من الاتقياء العابدين ، فاسلوبه المعجز . وقوة أبحاثه لا تزال لغزا .

كان محمد يتحدى الانس والجن أن ياتوا بمثله وكان هذا التحدى أقوى دليل على صدق رسالته ، ولا يستطيع أحد أن يشك فى اخلاص محمد ، فحياة محمد شاهدة على الاعتقاد بصدقه فى حمل أماناته الثقيلة ببطولة : وان قوة أبداعه ، وعبقريته الواسعة وذكائه العظيم . وبصره النافذ وقدرته على ضبط نفسه وعزمه المكين وحذره وحسن تدبيره وطراز عيشته كلها شاهدة على عظمته .

ويقول (واشنجطون أرفنج) : ان حياة محمد تعتمد على الاخلاص ولم يكن هناك مايدفعه الى خوض هذه المصاعب والعقبات التى صادفته منذ اعلان دعوته ، لو لم يكن الايمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه، ومن مظاهر عظمته تسامحه مع خصومه ومعارضيه ، وهل وجدنا فى تاريخ العالم تسامحا كالذى رأيناه من هذا الرسول الكريم ، لقد كان هذا التسامح سلاحا فعالا من أسلحة المسلمين . فقد أثرت سماحة النبى وتسامحا فى نفوس العرب فلانت قلوبهم ورقت نفوسهم فأقبلوا نحوه فى نفوس آمنة وقلوب واعية .

أما جنرال (ر.ف. بودلى)فيقول : لقد ظلت أخلاق محمد ثابتة لاتتبدل أيا كان العمل الذى يعمله ، سواء أكان يرعى غنمه فى سكون البادية ، أم يبيع عطوره أو أنماطه فى الشام ، ولم تتبدل اماناته . ولم يتغير صدقه . بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام ، وكان حاضر البديهة عذب الحديث ، معنيا بملابسه وهندامه ، وما كان ثرثارا وان كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه .

ويقول الكونت ليون تولستوى : لاريب أنهذا النبى من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى امة برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح للسلام ويكفيه فخرا أنه فتح لها طـريق الرقى والتقـدم .

ويقول (سير وليم ميور) : أن من صفات محمد الجديرة بالتنويه : الرقة والاحترام اللذين يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنا ، فالرقة والتواضع وانكار الذات والرأفة والاناة والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله ، وكان يكره ان يقول « لا » فاذا لم يتمكـن من ان يجيب طالبه فضل السكوت .

ومن جماع هذه الكلمات التى أوردها كتاب غربيـون فى عـديد من أبحاثهم ومقالاتهم يتكشف ذلك التيار الجديد الذى اشرنا اليه ، والـذى يفرض نفسه ، رغم كل مايقوم به المبشرون وكتاب الغرب المغرضـون من كتابات مليئة بالشبهات وعندنا أن هذا التيار سوف يعمق ، وسوف يهدى الكثيرين الى الخير والحق : الى جوهر الاسلام .

الباب الثالث
جوهر الاسلام

تناولت عشرات الابحاث التى كتبها المفكرون الغربيون ((جوهر الاسلام)) واستطاع كثير من المنصفين ان يصلوا الى فهم عميق لروح الاسلام ومقاصده وقد هدتهم اليها كتابات المسلمين والعرب التى ترجمت الى اللغات الاوروبية المختلفة ، وفى مقدمتها مؤلفات الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وما كتبه بالانجليزية الكاتب الهندى المسلم : أمير على وخاصة كتابه الضخم ((روح الاسلام)) .

وقد استطاع أغلب هؤلاء الكتاب المنصفين أن يصلوا الى الحق ويهتدوا بنور الرسالة عن طريق اقتناع وانصاف من النفس دلهم عليه ما درسوه وما قارنوا بينه وبين كتابات خصوم الاسلام ، ولكن أغلب المنصفين كانت هدايتهم الى الحق نتيجة لقربهم من أرض الاسلام .

وقد كانت رحلات بعض الباحثين الغربيين الى المغرب والجزائر ، والى القاهرة والجزيرة العربية عاملا فعالا فى كشف الحقائق الخافية .

١ ــ واميل درمنجم وهو فى مقدمة هؤلاء الباحثين قد عرف باتصاله بالمسلمين فى المغرب واكتناه أسرار حياتهم ، وهو صاحب كتاب حياة محمد الذى اهتدى اليه الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه ((حياة محمد)) وكان قد بدا بحثه بترجمة فصول درمنجم ثم استقل بالبحث ، وقد أصدر درمنجم كتابه هذا عام ١٩٢٩ فى باريس وأعجب به شباب العرب ومثقفيه هناك وكتب عنه الاستاذ أحمد عبد السلام بلافريج فى مجلة الفتح وقال : أن درمنجم اقام بالمغرب ايام الحركة الوطنية بالريف ((فى المغرب الاقصى)) مراسلا لجريدة الأنفور ماسيون فتعرف بالشباب العربى المسلم وخالطهم ، وقال بلافريج أن درمنجم مسيحى ولكنه معجب بالاسلام وان كتابه بالنسبة للغة التى ظهر فيها يجسب له حساب ، ذلك ان أوربا لم تعرف فى الزمن الماضى ولا الزمان الحاضر التى عمت فيه روح العلم والتحقيق الا صورة للاسلام مشوهة كاذبة ولهذا يعتقد انه سيكون له أثر فى تصحيح بعض ماكانوا يتخيلونه فى سيرة النبى :

يقول درمنجم فى بحث مستقل له تحت عنوان : ((القيم الخالدة فى الاسلام))

لكل حضارة أو دولة فى التاريخ بل لكل جنس أو مجتمع بشرى « شخصية » متميزة بخواصها وصفاتها الملازمة .. وقيمة الأمة الاسلامية ليست فقط فى أثرها التاريخى وهو تصفية تركة العالم القديم ، وتغيير نظم الحكم على ضفاف البحر المتوسط ، فتلك امة فى صميم تركيبها تشتمل على تعاليم ونظم مازالت الى يومنا هذا حية قوية ، بل قد كتب لها الخلود .

وحضارة الاسلام لا تحتقر الامور الدنيوية ولكنها تعتمد أيضا على الروحية وترمى الى مثل اعلى رفيع ، فهى تجمع بين الدين والدنيا ، وهى لذلك بعيدة عن النفعية وعن الرهبانية على حد سواء . ورسالة « الاسلام » تطرق مسائل متنوعة خطيرة ، فهى قد جاءتنا بدروس فذة فى ميدان الحرية الفردية ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ونظام الطبقات وفى العدل والمساواة بين القوى والضعيف والتسامح حتى خلال شدائد الحرب ، وفى الزهد وسط مغريات العصر والكرامة والآباء عند الفقر والعوز ، وهى فوق ذلك تعلم الفرد كيف يكون السمو والطهارة فى العبادة .. وثبت فى نفسه الايمان بأن لا قيمة لشىء اذا قيس به « المطلق » وان لاوجود لشىء الا بمشاركته فى هذا « المطلق » .

***

وحينما يهتف المؤمن بقلبه ، وليس فقط بلسانه « الله أكبر » فهو يهتف بالحرية الصحيحة الفعلية وعبد الله لايمكن أن يكون عبدا لكائن آخر ، وبمقدار تفانيه فى عبادة الله تكون حريته بالنسبة للغير ، وهذا المبدأ الرفيع ليس فقط منبعا للحرية الحقة ، بل ان منه تتفرع مبادىء الأخاء والمساواة فالاسلام قد سوى بين بنى الانسان فى انسانيتهم .. وآخى بين الرجال من كل الطبقات وحقق احترام الافراد بعضهم لبعض ، مهما اختلفت أحوالهم وتباينت ألوان معيشتهم . وبفضل عبادة الناس للاله المطلق أصبحوا مجتمعا واحدا مترابطا لا أفرادا يتفرقون شيعا حسب الأهواء والعادات والنظم المختلفة .

وليس اذن لأمة أن تسيطر على أمة غيرها ، وليس لجنس أن يتحكم فى غيره من الأجناس ، الكل سواسية أمام الله الذى خلق الانسان على صورته وجعل من البشر أهله .

فلا عجب أن يكتسب الانسان من هذا التشابه ومن هذه القرابة قيمة سامية فى شخصية وكرامة ذاتية تحول بينه وبين الخضوع لكائن من كان

وينتقل أميل درمنجم الى الحديث عن تعاليم الاسلام فيقول :

وفى العدل والرحمة تجد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤكد أن خير عمل للانسان بعد الايمان بالله هو أن يرحم أخاه فى الانسانية وأن من أراد رحمة الله فليرحم غيره من الخلائق ، والرحمة هى التى تشمل الكائنات كلها بما فيها الدواب وما أبعد هذه النصائح السامية من مبادىء نيتشه أو ميكافيلى أو أنصار « ارادة القوة » .

أن تعاليم الاسلام لا تحمد عمل من يسعى الى السيطرة والنفوذ ، وتهزأ من هؤلاء الذين يظلمون الخلق فلا يرون أنهم بذلك انما يظلمون أنفسهم ، ومن الأحاديث المشهورة « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى »، فالله قد ارسل رحمته الى البشرية كلها والناس جميعا فى هذه الرحمة سواسية كأسنان المشط ، ويروى أن رجلا قال يوما لبلال يا ابن السوداء فلامه الرسول .

***

وان نظم « الحرب » نفسها فى تعاليم الاسلام لتخضع للقيم الانسانية ولمثل العدل والشرف فالمفروض ان الحرب « جهاد » مقدس فى سبيل الدين والحق . وبهذا التسامى على الاغراض الدنيئة وضع الاسلام حدا لفوضى الحرب وآثامها ، وفتوحات العرب الأولى تمتاز بجو من الرحمة والانصاف يختلف كل الاختلاف عن أجواء الحروب الأخرى فى العصور القديمة والحديثة .

والنبى « محمد » فى القرن السابع الميلادى ، كان يعلم القبائل العربية البدائية كيف تكون الحرب الصحيحة فيلقى عليهم بنصائح لم نسمعها قط من قائد قبله ، فهو يوصيهم بتجنب السرقة أو الغش وبالمحافظة على حياة الأطفال ، والنساء ، والشيوخ ، وبالانصاف حتى بين الأعداء وبعدم تخريب البيوت أو نهب الحقول أو قطع النخيل .

والخليفة الأول (أبو بكر الصديق) يأمر جنده باحترام العهود والوفاء بالمواثيق التى يعطونها للأعداء ، ان هذه التعاليم الرفيعة جديرة حقا بالاعجاب وخاصة اذا علمنا كيف كانت الحرب بين بلدان الغرب فى ذلك العصر .

ودعوة الناس الى « الجهاد » تكثر فى « القرآن » ، ولكنها محدودة بقوانين وقواعد صارمة واضحة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين » .

***

« والسلم » فى الاسلام هو الحالة الطبيعية للانسانية ، بل هو خير الحالات وليست الحرب فى الحقيقة الا جهادا بسيطا ، انها « الجهاد الأصغر » اما « الجهاد الأكبر » فهو « جهاد النفس » ذلك الجهاد المقدس العنيف الذى يقوم به الانسان مستعينا بسيف العزيمة لمقاومة أنانية النفس الأمارة بالسوء وللسيطرة على الرغبات الدنيئة وللسمو بالروح نحو أرفع مراتب الكمال .

فما أبعد الشوط الذى قطعه الاسلام للوصول بالانسانية الى غايتها الصحيحة ، وما أبعد الفرق بين تعاليمه الرحيمة وبين ماسواه ، ولن يجد الباحث بين مفكرى الاسلام من بنى مذهبا له فى السياسة والحكم على دعامة غير العقل السليم والعدل .

ولقد وفق الاسلام بين الاتجاهين المتقابلين : المادى والروحى ، وقال الرسول « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » وفى القرآن الكريم « وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » وان حضارة تعتمد قبل كل شىء على القيم الروحية للانسان لا يمكن أن يجرفها التيار المادى البحت ، وكان محمد عليه السلام كثيرا ما يقول لاصحابه انه يخشى عليهم الغنى والاسراف وان المال لا شىء يطهره سوى الزكاة ثم الانفاق لوجه الخير والزكاة وهى ركن من أركان الاسلام الخمسة وتمثل نظاما طيبا للتعاون « والاسلام يفرض للفقير حقا معلوما فى مال الغنى » .

٢ — وننتقل من أميل درمنجم الى (اتيان دينيه) والفرق بينهما أن الأول يتحدث عن الاسلام حديث الاعجاب ، أما الثانى فانه يتحدث عنه حديث معرفة عميقة دفعته أن يتخطى كل الأوضاع وأن يعتنق الاسلام وقد

خصص كتابه « أشعة خاصة بنور الاسلام » فى سبيل تصـوير مفهـومه للاسلام : يقول :

الشخصية التى حملها محمد عليه السلام كانت خارقة للعـادة وذات أثر عظيم جدا حتى انها طبعت شريعته بطابع قوى جعـل لها روح الابداع واعطاها صفة الشىء الجـديد

أن للاسلام عقيدة التوحيد الالهية العليا ، وله تلك المبادىء السـامية الذى لم يعتمد فى اتمام رسالته على المعجزات ، وليست عمدته الكبرى ، الا بلاغه التنزيل الحكيم . وقد جاء محمد بأكبر المعجزات ، جـاء بذلك الدين الحنيف الذى لم ينفك يزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرنا ، وقد حرص محمد على ألا تنسب اليه المعجزات غير « القـرآن » حتى أنه لما مات ابنه ابراهيم حزن عليه ، وحدث أن كسفت الشمس ساعة دفنه ، فقال الذين من حوله انها لمعجزة يا محمد ، فقد شاركتك الشمس فى حزنك على ولدك ، فقال النبى « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

وان « القرآن » هو الكتاب الوحيد الذى يأمر بالرفق والاحسان فى الدين ، والمسلمون يحملون لعيسى فى نفوسهم التبجيل والتعظيم ، وقـد رفع محمد قدر العلم الى أعظم الدرجات وأعلى المـراتب وجعله من أول واجبات المسلم ويقول « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشـهداء » « وفضل العلم خير من فضل العبادة » وقد أحس محمد بالأثر السىء الشديد للخمر فى النفوس فحاربه حتى حرمه تحريما تاما ، وذلك هو الداء الفتاك فى عصرنا الحاضر . « والوسيلة » هى أحدى كبريات المسائل التى فاق بها الاسلام جميع الأديان ، اذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس فى الاسلام وسطاء وقد حرم الاسلام نظام القداسة ومحا الولاية فنفى بذلك الخرافات الضارة وآزال آثارها ونتائجها . وليس للمسلم أن يدعو الرسول وانما له أن يدعو الله وحده لا شريك له . وقد يكون للمسلم أن يدعو الله للرسول

ولكن لا يدعو الرسول لله ولا لذاته . والدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا ولم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى ريشته أو ينحته أزميل ، ذلك لأن « الله » لم تكن له صورة محصورة وهو الواحد الأحد الفرد الصمد . لم يكن له كفوا أحد .

وأبرز معالم الاسلام :

(١) علو الهمة

ولما كانت الشريعة الغراء قد ساوت بين الناس ولما كان لابد للناس من مراتب ، لم تجعل لأحد منهم فضل على أحد الا يعلو الهمة فى مكارم الأخلاق .

(٢) المساواة

لقد حقق الاسلام نظرية المساواة بين هذه القبائل والشعوب وهى النظرية التى لم تأت أخيرا الا على يد الثورة الفرنسية .

(٣) الفروسية

ان الفروسية ونبالة مقصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ولكنها كانت معروفة عند العرب قبل الاسلام ثم هذبها الاسلام وطهرها تطهيرا ، وعلى يده دخلت أوربا ووصلت الينا نحن الغربيين ، ولم يبق أحد ينكر نسبتها الى المسلمين والعرب ، وقد ذكر العالم المسيحى المتدين (بارتلى سان هيلار) فى سياق حديثه عن القرآن : « ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها فى القرون الوسطى فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم والرفعة بها الى حيث الانسانية والنبالة وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم شيئا » وقد حفظ التاريخ فى سجلاته عن فروسية المسلمين وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب .

(٤) مســـايرة الطبيعـــة

لايتمـــرد الانســـان على الطبيعـــة التى تغلب : وانـــما هو يســـاير قوانينها ويزامل أزماتها وليس يكفى الاسلام أن يســـاير الطبيعة انما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها اكثر قبولا واسهل تطبيقا فى اصلاح ونظام ورضا ميسور والامثلة عديدة لا تعوزنا .

(٥) لغة القـــرآن

لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية ان تقوم بها ، ذلك انه مكن اللغة العربية فى الأرض بحيث لو اعاد أصحاب الرسول الينا اليوم لكان ميسورا ان تتفاهم تمام التفاهم مع أهل اللغة العربية ، وهـــذا عكس ما يجد مثلا أحد معاصرى (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذى هو أقرب الينا من عصر القرآن من الصعوبة فى مخاطبة العدد الأكبر من فرنسى اليوم . وان لغة القرآن وان كانت تمت فى أصولها الى عصور بعيدة قديمة فهى مرنة طيعة تســـع التعبير عن كل مايجـــد من المكتشـــفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئا من رونقها وسلامتها .

(٦) بساطة الصلاة والنظافة

ان الحركات والاشارات فى الصلاة الاسلامية هما ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيـــل من نوعها فى صـــلاة غيرها ، كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف حقا ، وان الصلاة الاســـلامية خاليـــة من تلك الأمور الشائنة ، وهى ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنـــان ، وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك وهى فضلا عن ذلك تقدم للجسم أعظم مزايا الحركات الرياضـــية ، أضف الى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة ففيها للبدن انتعاش صحة ونظافة والنظـــافة من الايمان .

ويتميز الاسلام فى الدعوة الى الصلاة بأن الانسان هو الذى يدعـــو اخوانه الى تأدية هذه الفريضة وان صوت الانسان صوت طبيعى وهو أدعى

الى حمل العاطفة الانسانية الصادرة من قلب المؤمن الى اخــوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الاسلام .

(٧) طابــع الاســـلام

ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفى الوقت نفسه حر الفكر أو لا تقتضى حرية الفكر ان يكون المرء منكرا وكما أن الاسلام منذ نشأته هو لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات وللاســلام على النفوس طابع لايمحى ، فهو يهيج فى نفس الرجل العملى فى أسواق لنــدن حيث مبــدأ القــوم (الوقت من ذهب) اذ هو يأخــذ بلب ذلك الفيلسوف الروحانى وكما يتقبله عن رضى ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال ، اذ يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن وتملكه الشعر ، وهو الدين الذى ليس له مرتدون ، هــذا ولو أردنا ان نعرف الأثر الحقيقى والطابع الكبير للاسلام على الافئدة والنفــوس أوجب دراســة القرآن دراســة تحليلية حتى يظهر قدر العظمة والتأمل فى روح العقيدة الاســلامية فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى .

***

وبعد فهذه محاولة لتقديم عصارة موجزة لرسالة مسيو ايتان دينيه من أكبر رجال أهل الفن والتصوير الفرنسيين وصاحب اللوحات النفسية القيمة التى تزدان بها جدران المتاحف الفرنسية الكبرى . وله فى متحف لوكسمبرج بباريس عدة صور منها الصورة المشهورة باسم (فــداء وغداة رمضان) وكان قد درس الاسلام واعتنقه عام ١٩٢٧ وسمى نفسه ناصر وله عــدة مؤلفات منها ، حياة العرب وحياة الصحراء وكتاب الشرق كما يراه الغرب ومن أهم كتبه تاريخ الرسول وضعه بالفرنسية وزينه بالصور الملونة الرائعة من ريشته الخاصة وقدمه لأرواح الجنود الاسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى . وقد توفى الى رحمة الله فى الأعوام الأخيرة وقام بترجمة بعض آثاره راشد رستم ومن بينها رسالة (اشعة خاصة بنور الاسلام) التى قدمنا خلاصة له لها فى هذا الفصل القصير والذى بدأه بقوله « ان الشخصــية

التى حملها بين برديه كانت خارقة للعادة » وكانت ذات أثر عظيم جدا حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوى جعل لها روح الابداع وأعطاها صفة الشيء الجديد ، وتلك هي الأمة الاسلامية على اختلاف جنسيتها وبلدانها قد طبعها الاسلام بطابعه الواضح المحسوس بل ان آثاره لاتزال باقية فى أهل اسبانيا وان كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون » .

٣ — أما الدكتورة (لورا فيتشافاليرى) الكاتبة الايطالية وأستاذةاللغة العربية وتاريخ الحضارة الاسلامية فى جامعة نابولى بايطاليا فانها تتميز فى عرضها للاسلام بطابع مختلف ، فهى مثقفة دفعها ايمانها بتحرير الأبحاث الدينية الى مراجعة ماكتب عن الاسلام فى المراجع الموجودة فى جامعة نابولى، فلما لم تجد ما يشفى غلتها أو يدلها على الحقيقة ، تطلعت الى مؤلفات المسلمين باللغة العربية فاستحضرت مؤلفات الغزالى وابن تيمية ومحمد عبده ولم تلبث أن كتبت بحثا مطولا تحت عنوان (محاسن الاسلام) ترجمه فى أوائل الثلاثينيات (طه فوزى) بمحكمة استئناف مصر عام ١٩٣٤ ثم أعاد ترجمته تحت عنوان آخر هو « دفاع عن الاسلام » : منير البعلبكى وطبعه فى لبنان عام ١٩٦١ والكتاب يروى قصة ايمان حقيقى للكاتبة بالاسلام ، وقد لقيت الكاتبة — كما تروى فى تضاعيف كتابها — متاعب جمة من جراء التصريح برأيها فى الاسلام من بعض الدوائر الثقافية الغربية .

ويبدو فى عرضها طابع الشاعرية التى تتسم به كتابات المرأة ذات الثقافة اللاتينية تقول :

تفجر ينبوع ماء سلسل عذب منعش ، فى واد غير ذى زرع ، ذلك الينبوع هو ، (الاسلام) الذى تدفق بغزارة واتخذ سبيله فى الأرض سربا فكان نهيرا استحال بعده الى نهر عظيم سرعان ماتفرعت منه آلاف الجداول والأنهار التى تغلغلت فى البلاد طولا وعرضا ، ولم يلبث الناس أن تذوقوا هذا الشراب العجيب وشفوا منه أمراضهم الاجتماعية ، واستحال هذا الماء المقدس سيلا جارفا اكتسح بقوته الساحرة بلادا عظيمة فتغلب عليها واكتسحها اكتساحا وأيقظ بصيحته العقول الغافلة التى كانت تغط فى ثبات عميق .

وتقول :

لم يشهد التاريخ حادثا مماثلا لهذا الحادث الخطير لأن السرعة العظيمة التى أتم بها (الاسلام) فتوحاته كان لها أبلغ الأثر فى حياته اذ أصبح دينا لعدة ملايين من الناس ، ليت شعرى كيف تأتى لهؤلاء المجاهدين غير المدربين أن ينتصروا على شعوب تفوقهم مدنية وثروة ، ويزيدون عليهم دربة ومراسا للحروب ، وكيف استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على بلاد متسعة الارجاء وأن يحتفظوا بفتوحاتهم هذه ويوطدوا هذا الصرح الضخم الذى ثبت أمام حروب شديدة استمرت قرونا عديدة فلم تقو على هدمه ونقض بنيانه الشامخ المتين ، وكيف أمكن هذا الدين أن يوطد فى نفوس أولئك المهتدين به أقوى الأسس .

وكيف تسنى له أن يحتفظ بحيويته العظيمة التى لم تعرف مثلها ديانة أخرى من قبل حتى بعد ثلاثة عشر قرنا خلت من حياة مؤسسه .

وتقول :

بعد أن زالت مدنيتا الدولتين الفارسية والرومانية وتهدمت دياناتهما سرى فى عروق الشعوب تيار جديد ، وانتشرت بينها ديانة جديدة بسيطة تتحدث الى العقل والى القلب معا كما ظهر نظام جديد للحكم يفضل كثيرا تلك النظم التى كانت متبعة هناك فى ذلك الوقت ، نظرا لمبادئه الخلقية الكريمة ؛ كذلك انتقل المال المحبوس فى خزائن الاشراف الى ايدى الفقرء وعامة الشعب ، وأخذت تتناوله الأيدى مرة ثانية ، وتستفيد من ثمراته وبعد أن هدأت الفتوحات ، بدأ عهد جديد ، عهد نجاح وثراء لم تره القارة الآسيوية منذ قرون بعيدة ، كما أن مختلف الطوائف كانت تجد فى حكامها الجدد كل ضمان لطمأنينتهم ، ويتمتعون بكافة حقوقهم المشروعة كما أن أرواحهم واملاكهم كانت مكفولة ، وبالجملة كانوا يعاملون معاملة اخوانهم المسلمين سواء بسواء .

* * *

أما الذين دهشوا لهذا الانقلاب الاجتماعى الدينى السياسى فانهم لم يدركوا أن القوة الالهية هى التى أعطت الاشارة الأولى لهذه الحركة

الواسعة النطاق ولم يشاءوا أن يصدقوا أن الحكمة الالهية هى التى اقتضت أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وسجلت له الى الآن رسالة عامة الى الناس أجمعين بغير تمييز بين جنس وجنس أو بين بلد وبلد .

ولقد كان محمد كثير التسامح وبخاصة مع أهل الكتاب ، كما انه أخذ غير المسلمين بالكثير من الصبر والاناة لأنه كان يتوقع هدايتهم مع الزمن وكما كان النبى يعقد المعاهدات مع خصومه المغلوبين على أمرهم ، فكذلك فعل الخلفاء ، ولما كانت تعاليم النبى وخلفائه الأوائل تعتبر بمثابة قانون للمسلمين ، فانه يمكن القول بحق أن الاسلام لم يقتصر على التوصية بالتسامح ، بل انه قد أدمجها فى قانونه السماوى بحيث صارت قاعدة أصيلة من أصول الدين .

وتقول :

ولقد كان محمد – كرسول يدعو الى الله – رجلا رحيما لين الجانب حتى لأعدائه الشخصيين وبذلك اجتمعت فيه فضيلتان كلتاهما أكبر الفضائل التى يتصورها العقل البشرى وهما « الرحمة والعدالة » .

وقد انهدمت الوثنية بفضل الاسلام وتحررت المدارك ونشطت العقائد ، وخلصت الحياة الاجتماعية من مظاهر الوحشية وانقشعت الأوهام التى كانت تسيطر على النفوس ، وبخلوص النفس البشرية من أوهامها تحررت ارادة الانسان من الروابط التى كانت تقيدها بارادة الآخرين أو بسلطات خفية ، وسقط كل الذين كانوا يزعمون لأنفسهم الوساطة بين المرء وربه فصار الانسان بفضل الاسلام عبدا لاله واحد ، وصار الناس سواسية كأسنان المشط ، ورفع الاسلام النقاب الذى أسدل من قبل عن الكتب المقدسة للحيلولة دون فهمها ، ولم يعترف الاسلام لكائن من كان من اتباعه بحق الحكم على ايمان أحد من اخوانه فى الدين ، واذا كان أتباع المذاهب المختلفة فى الأزمنة السابقة قد اتهم بعضهم بعضا ، فان الامام الغزالى حجة الاسلام أعلن فى الاسلام المذهب القائل : بأن الاجماع على العقائد الاساسية للدين هو أساس الاعتراف بايمان الناس وبأن الاختلافات حول التفاصيل فى الاعتقاد والمذاهب لايؤدى الى المروق من الدين ، وفى صدر نظرية

العدالة الالهية يؤكد القرآن فى غير موضع أن اعمال الانسان سواء كانت طيبة أم سيئة ، هى مما كسبت يداه ، « وأن ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى » ، ولن يغلق الله الباب فى وجه واحد من عباده حتى الأشرار منهم بل يسر لهم المقدرة والكفاية لعمل الخير ، وان رحمة الله هى احدى المسائل التى تكرر ذكرها فى القرآن وان تسميته بالرحمن التى تبدأ بها كل سورة من سور القرآن لتدل دلالة واضحة على أهمية هذه المسألة .

وتقول :

على ان المعجزة التى تفوق كل المعجزات والتى وصلت الينا أخبارها من مصادر غير مشكوك فى صحتها فهى (القرآن) فانه كتاب لا يستطيع انسان أن يأتى بمثله ، اذ أن كل عبارة من عباراته متزنة منسقة مشتملة على معان كثيرة سهلة المأخذ ، فلا هى كثيرة الايجاز ولا هى بالغة حد الاسهاب والاطالة ، ولما كان أسلوب (القرآن) فريدا فى بابه ، ولم يكن له مثيل سابق فى الأدب العربى ، فانه يقع من النفس البشرية موقعا صحيحا لا تصنع فيه ولا افتراء ولا تمويه ولا استكراه ، اذ ان آياته كلها على جانب عظيم من الفصاحة حتى ما كان منها خاصا بالأوامر والنواهى التى يجب منطقيا أن تكون فى أسلوب هادىء ، كما أن سير الأنبياء ، وأوصاف بدء الخلق ونهايته والأحكام وخصائص الله وصفاته كل ذلك يتكرر ذكره فى هذا الكتاب العجيب بأشكال وصور متعددة ولكن دون أن يفقد شيئا من روعته ومكانته ، وكذلك فان الانتقال من موضوع الى موضوع فى القرآن يحصل كثيرا ولكن بغير أن ينحط التعبير عن مستواه ودون أن تقل حلاوته ،وكذلك فان التعمق وسلامة التعبير وهما صفتان يندر أن يجتمعا معا وقد ظهرتا متجليتين فى القرآن ، وفيما عدا ذلك وان كل صور البلاغة تجد تطبيقاكاملا فى القرآن ، فكيف اذن والحالة هذه يمكن القول بأن هذا الكتاب العجيب من عمل محمد ، الذى لم ينظم طوال أيام حياته بيتا واحدا من الشعر سوى قوله « أنا النبى لاكذب ، أناابن عبد المطلب » ولقد تحدى النبى قومه أن يأتوا بكتاب مثل القرآن أو بسورة واحدة منه ، ومع أن الفصحاء بين

العرب كانوا أكثر من رمل الصحراء ، فان أعداء الاسلام لم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن ، ولكنهم حاربوه بالسلاح عندما لم يجرؤا على محاربته بالكلام ، وفضلا عن روعة الشكل وجمال الأسلوب اللذين اختص بهما القرآن فانه لايشبه كتابا آخر فى مادته ، فاننا نقرأ فيه نبوءات بحوادث مستقلة ، وقصصا عن حوادث مجهولة ، وقعت منذ أجيال بعيدة ، كما أنه حوى اشارات الى العلوم المختلفة من دينية ودنيوية ، واجتمعت فيه كذلك حكمة لايستطيع ادراك كنهها أذكى الناس فهما وأطول الفلاسفة باعا وأعظم السياسيين حنكة فلكل هذه الأسباب لم يكن من المعقول أن يكون بعيدا عن الأوساط العلمية ورجال الدين ، رجل كان يرى نفسه كسائر
بعيدا عن الأوساط العلمية ورجال الدين ، رجل كان يرى نفسه كسائر
الناس غير جدير بالاتيان بالمعجزات اللهم اذا كان بعون من الله القدير ، ولم يكن مثل هذا الكتاب ليصدر الا عمن وسع كرسيه السموات والأرض وأحاط بكل شىء علما ، على أن هناك دليلا آخر على قدسية القرآن وهو أنه بقى طوال هذه القرون العديدة التى مضت منذ نزوله الى يومنا هذا دون أن تنال منه يد تغيير ولا تبديل وسيبقى هكذا الى ما شاء الله

***

وتقول :

ولقد حاول أعداء الاسلام أن يظهروا النبى فى صورة رجل رغبة ، بأن اتخذوا من زيجاته العديدة حجة لاتهامه ؛ ولكن فاتهم أمر هام لم يحسبوا له حسابا ، وهو أن النبى أيام فتوته وعنفوان شبابه لم يتزوج الا من امرأة واحدة هى السيدة « خديجة » واحتفظ لها فى أثناء الخمس والعشرين سنة كل محبة واخلاص ولما فقدها وكانت سنه حين ذاك خمسين سنة تزوج من أخرى كما عقد زيجاته المختلفة التى كانت فى أغلب الأحيان لدواع اجتماعية أو سياسية .

وتقول :

أما المرأة فقد أعطاها الاسلام حقوقا وكرمها تكريما ، واذا كانت المرأة فى أوربا قد بلغت شأوا فى السنين الاخيرة فان مركزها قانونا كان

الى وقت قريب فى كثير من البلاد أقل استقلالا من مركز المرأة المسلمة فى العالم الاسلامى ، فان المرأة المسلمة فضلا عن تمتعها بحق مشاركة أخوتها فى الميراث ولو بنسبة أقل ، وعدم زواجها بأحد بغير رضائها ، وعدم اكراهها على معاشرة زوج يسىء معاملتها ، فان لها الحق فى قبض مهر من زوجها ، وأن يقوم الزوج بالانفاق عليها حتى ولو كانت موسرة ، وأن تتمتع بكامل استقلالها وحريتها فى ادارة ممتلكاتها .

وبعد : فان الاهمية التى يضفيها الاسلام على العقل ، هى فى نظر معظم المسلمين بحيث أنه اذا جاء مايوهم ظاهرة أنه غير متمش مع العقل وجب الاعتقاد بأن الظاهر هو غير المراد ، هذا الايمان الذى أساسه الاقتناع الفكرى والذى يفرض على الرجل ان يستعمل مواهبه الفطرية ، وأخصها الفكر فى تفهم أصول الدين ، كيف يستطيع أن يكون هذا الايمان عائقا للعلم والفلسفة .

ولكن هل منع الاسلام تقدم الثقافة والعلوم فى الأجيال السالفة عندما كانت مدارس العرب وقصور أمرائهم ينبعث منها النور الى أوربا ، التى كانت غارقة فى ظلمات القرون الوسطى ، وعندما كان فكر فلاسفة العرب قد بلغ أسمى علاه حتى صار منارا تهتدى به عقول الغربيين ، ألم يمارس العرب الطريقة التجريبية قبل أن يعلن عنها العلامة « بيكون » ؟ ألم يكن للعرب الفضل الأول فى تقدم علم الكيمياء والفلك وفى نشر العلوم اليونانية ومتابعة الابحاث الطبية وفى اكتشاف الكثير من القوانين الطبيعية. وهل بعد هذا يمكن أن يقال أن « الدين الاسلامى » من طبيعته اعاقة تقدم العلوم والثقافة ؟ من الحق أن يقال انه لايوجد فى الاسلام أى أسس للاعتقاد بأن النبى أو وارثى تعاليمه قد نصحوا يوما بترك الحياة الدنيوية والاشتغال عنها بالعبادة .

أما العلامة سنكس الفرنسي فانه يحاول على قدر استطاعته تصـــوير الاسلام ويخلص أساسا الى حقيقتين هامتين :

(الأولى) أن الاسلام خلص الانسان والفـكر الانســانى من وثنيــة القرون الأولى الخشنة . واضطر العالم أن يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن خالقه فى صميم روحه .

(الثانية) أن الاسلام أطلق العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

يقول : حمل مهمة ترقية العقول البشرية وايصالها الى الاعتقاد باله واحد وبحياة بعد هذه الحياة .

وبعد أن أمضى محمد عدة سنين فى الحياة التأملية أعلن لأفراد مخلصين له بأنه سيقوم بنشر دين الله ويحمل الى الناس سعادة هذه الحياة وسعادة ما وراءها من الوجود الثانى . فتصداه قومه فى مكة وهددوه بالقتل فلجأ الى المدينة (مدينة النبى) ومن تاريخ الهجرة يؤرخ المسلمون .

ولم يمض الا بعض قرن بعد وفاة النبى حتى كانت جميع شعوب البلاد العربية وشمال أفريقيا من أول مضيق هرمز الى شواطىء المحيط الأطلنطى خاضعة للراية الاسلامية .

وكانت اسبانيا قد تم فتحها ، ومنها زحف المسلمون على فرنسا ولم يصدهم عنها الا أن الشعوب اليونانيــة والرومانيــة كانت لاتــزال متأثرة بأساطير الوثنية الشعرية فلم تستطع أن تفهم ديانة غاية فى البساطة والصراحة

ولما وقف الشرق فى فتوحاته دخل فى عهد جديد من الحياة الفكرية فارتقت الآداب والصنائع والعلوم ارتقاء عجيبا ، فبينما كانت أوربا تتخبط فى غياهب القرون الوسطى كان المسلمون قد وصلوا الى درجة من المدنية عالية بالنسبة لما كان موجودا منها ، وأكب العرب المتعلمون على ترجمة كتابات الفلاسفة الأقدمين وأسسوا جامعات فى بغداد وقرطبة فحفظوا بذلك المعارف الانسانية وزادوها .

ثم مضى العلامة سنكس فدافع عن الاسلام اتهام خصومه ووصفه بالتعصب وقال : وقد ظلمه من عابه من هذه الوجهة ، فلم يقل محمد قط « لا خلاص الا بالاسلام » بل قال عكس ذلك ، فظهر أعظم روح للتسامح فى عدد كبير من سور القرآن .

وقد أمر النبى بعدم ايذاء الناس من أجل عقائدهم ،وبعدم اكراههم على الاسلام ، وقد عابوا على القرآن بثه فى اتباعه الاعتقاد بالقضاء والقدر ، أى عقيدة عدم استخدام الارادة أمام الحوادث التى قدرها الله قبل وقوعها ، وقالوا ان ذلك جعلهم فى حالة من الجمود العقلى والجسدى ينافى كل تقدم مدنى .

وقد غالى عائبوه فى ذلك ، فان القرآن ككل الأديان أوصى بالخضوع المطلق لارادة الله ، ثم أن القرآن لم يجعل الايمان بالقضاء أصلا مطلقا ، كما جعله لوثر وكالفان (مؤسسا البروتستانتينية) نعم ان عددا عظيما من سور القرآن تذكر القضاء والقدر ، ولكن منطق الاسلام يقرر أن الانسان حر ، وأنه مسئول وحده عن نجاته وهلاكه ، وأنه يستطيع أن يكون بارا وأن يكون فاجرا بارادته .

وقد أظهر محمد فى عهد نبوته نشاطا وعزما وقوة لا تدل فقط على ثقته بالله ، ولكن تدل على ثقته بنفسه ، وعلى حريته فى الأغراض التى يرمى اليها ، وقد ظهرت فى المسلمين قوى وصفات لا يمكن لشعب جامد على عقيدة القدر أن يظهرها .

ويتحدث العلامة سنكس عن مفهومه للقرآن فيقول :

«والقرآن » هو مجموع ماسنه الاسلام وقد وصفه (بارتلمى سانتهلير) وقال « ولم أر ما يشبهه فى جميع ماضم التاريخ الدينى للعالم الانسانى ، وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذى أحدثه ذلك الكتاب فى العرب الذين اعتقدوا بأن محمدا لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لابد من أن يكون قد أملاه عليه « الملك جبريل » وقد كان محمد يؤكد أنه يتلقى

معارفه عن الملأ الأعلى ، وقد أجمع معاصروه بأن ما فى القرآن من تعاليم ، ليست من صنع محمد ، هذه التعاليم التى رقت عقول الملايين من الناس ، ولا تزال ترقى كل يوم شعوبا متأخرة باشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيئية ، ولن تمضى سنوات حتى تصبح أفريقيا كلها دائنة للاسلام والمسلمون يزدادون كل يوم عدا ، وكل هذا دليل على حيوية وعظمة ديانة الله .

ولم يأت محمد لمكافحة التوراه والانجيل فهو يعترف بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس الى الحق .

وان تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما ، ولكنه — أى القرآن — يزيد على ذلك ، وقد رفض جميع الرموز ودعا المؤمنين به لعبادة اله واحد قادر .

وأمر بخمس صلوات فى اليوم ليتخلى الانسان عن اشتغالاته المادية لحيظات فى اليوم ، يرتفع خلالها الى مولاه ، وأمر بأن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية ، وأوجب على المسلم : أن يتصدق بحصة من ايراده ، وتلك غير الصدقة الاختيارية ، وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التى كان غير معترف بها الى عهده ، كما هذب مبدأ تعدد الزوجات ، وحمى الأطفال بتحريم قتلهم تخلصا من اعالتهم ، ورعا حق الرقيق فأمر بمعاملته باعتباره عضوا فى البيت ، وكان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين من أغنى الناس وأقواهم الى أفقرهم وأضعفهم وحرم السرقة والقتل والاكراه ، واعلن محمد بأن للانسان حياة مستقبلة فيها عقاب وثواب .

وعبادة المسلمين لا ترى واسطة بين الانسان وربه ، فالانسان يستطيع أن يناجى ربه مباشرة دون واسطة ، والله واحد أبدى لا يتغير ولا يرى .

***

وينتقل الباحث الى أثر الاسلام فى العقول والمجتمعات فيقول :

وقد أحدث الاسلام رقيا عظيما جدا فى تدرج العاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الانسانى من قيـوده التى كانت تأسره حول المعـابد بين أيدى الكهنة ، من ذوى الأديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة يجازى فيها على أعماله ، وباله واحد يمكنه أن يعبـده ويرتفع بروحه اليه دون وسيط .

ثم ان أمر محمد بتحريم الصور فى المساجد ، وكل ما يمثل الله ، قد خلص الفكر الانسانى من وثنية القرون الأولى الخشنة ، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه ، وأن يرتفع اليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام والحب .

ويقول :

ان الناس لم يتلفتوا للترقى العظيم الذى أوجده الاسلام من الوجهة الأدبية ، فان ذلك الرقى تحقق بعيدا عنا فى أمم اعتدنا أن نصفها بالبربرية ، لأنه ليس لديهم مثل أفـكارنا وعقائدنا ، ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العملية والعقلية ، ولكن مع هذا يجب الاعتراف بأن هذه الحركة قد ساعدت بقوة وتساعد كل يوم لاثارة عقول الأمم .

والاسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة ، ومن كل الشروح الضالة يظهر لنا أنه أعظم المدركات على العـلاقات التى يجب أن توجد بين الانسان وخالقه وأكثرها انطباقا على الطبيعة والمنطق .

٥ ـ ويحاول العـلامة الفرنسى « هنرى لاوس » أن يتحـدث عن أثر الاسلام فى الثقافة وكيف وحدت العقول على مفـاهيم شاملة متكاملة ذات طابع استقلالى عن ثقافات اليـونان والفرس وغيرهم ممن سبقوا عصر الاسلام الاول يقول :

ان وحدة الثقافة الاسلامية ، تقوم بوحدة العقائد الاسلامية ، وما كان الانقسام عند المسلمين الا فى الفروع ، ومهما يكن من تأثير العنصر الدينى

فى الثقافة الاسلامية فليس فى الاسلام ما يسنع البحث العلمى ، وقد قامت عند المسلمين مدارس مهمة للطب والعلوم .

ويتساءل هنرى لاوس :

ما هى الثقافة ؟ ويجيب بأنها مجموع الأفكار والعادات والموروثات التى يتكون منها مبدأ « خلقى» لأمة ما ، ويؤمن أصحابها ، بصحتها ، وتنشأعنها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها ، وجميع الثقافات تتكونوتتطور بعوامل داخلية وتتأثر ببعض المؤثرات الأجنبية ويأتى عليها زمان تكون فيه القمة العليا من النشاط والظهور ويعتريها الوهن فى بعض الأحيان ثم يعقب انحطاطها نهوض تنتعش به ، وبهذا المعنى أمكن القول بوجود ثقافة اسلامية عامة ابتدأت فى التاريخ بالدعوة الاسلامية الأولى فى عهد النبوة ثم تكونت فى زمن الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ثم فى عهد العباسيين ببغداد وانتشرت فى مختلف الأقطار الاسلامية من الشرق الى الغرب .

ويقول :

تتكون الثقافة الاسلامية من الأدب الجاهلى وهو العنصر الأول الذى يمثل الأقطار ووصف الحياة فى الصحراء ويتجلى فيه « المروءة » التى كان يمتاز بها عرب الجاهلية والعنصر الثانى هو العنصر الدينى المحض وفى مقدمته « القرآن والحديث » منه ما نزل من السور فى مكة وما نزل فى المدينة ويتناول القرآن التكوين السياسى والاجتماعى للأمة الاسلامية ، ولا غنى للمستشرقين عن دراسة القرآن ، أما الذين لايفعلون ذلك ولاسيما الذين يظنون أن الاسلام قد زال نشاطه فانهم يعنون بدراسة المسلمين أكثر ما يعنون بدراسة الاسلام نفسه . والقرآن ما زال يفسر بالسنة التى جاءت مبينة لمشاكله ، مفصلة لمجمله ، وهى تتناول التشريع فى العبادات وغيرها

وجميع ما يتصل بالحياة اليومية . ولما انتشر الصحابة فى البلاد بعد الفتوح أخذ الناس عنهم الحديث وتناوله القصاص فوضع بعضهم أحاديث وقصصا فانبرى لهم من العلماء رجال ميزوا بين الصحيح والموضوع ، وردوا مادسه الوضاعون ، وكانت نتيجة ذلك تدوين كتب « السنة » المعتمدة ، وأقول أن التمسك بالسنة أقوى ما يوجبه الاسلام وان الامام أحمد بن حنبل وأتباع مذهبه من أشد المتمسكين بالسنة . والعنصر الثالث فى الثقافة الاسلامية هو « المؤثرات » الأجنبية ومن أهمها ثقافة اليونان ، لأن المسلمين ترجموا طائفة من كتب الفلسفة وبذل بعض المسلمين أموالا طائلة فى هذا السبيل

وتساءل هنرى لاوس مرة أخرى عما اذا كان المسلمون قد اقتفوا أفكاره وحضارة الأمم السابقة ، أم كانت لهم ثقافة متميزة ، وان استعانوا بتراث الحضارات من قبلهم ونموه وزادوا عليه ؟

وأجاب : أن الذى أراه ان الثقافة الاسلامية لها طابعها المتميز ثم عرض لفنون الثقافة الاسلامية وفى مقدمتها التاريخ فقال :

وجميع المؤرخين فى الاسلام على نمط واحد فى ايراد الحوادث والوقائع لا كما نفعل الآن بتحويل البيئات والمؤثرات والظروف ما خلا (ولى الله عبد الرحمن بن خلدون) فانه طبق قواعد النقد على التاريخ بكل معانى الكلمة ، وحاول ان يعلل الحوادث التاريخية على ضوء نظرياته الاجتماعية .

ومن مظاهر وحدة الثقافة الاسلامية من جهة الأدب « الشعر » ، فان جميع المسلمين فى المشرق والمغرب يتخذون من دراسة الشعر العربى ، ومن أوثق الروابط بين الأقطار الاسلامية ما رأيته بنفسى فى المغرب من عناية المغاربة بشعر شوقى وحافظ فهذا كله مما ترتب عليه وحدة الثقافة .

وعندى أن « اللغة العربية » من أهم دواعى الوحـدة الثقافيـة بين المسلمين ، وأهم أسباب تفوق هذه اللغة انها اللغة الرسمية ، ولغة الدين ، ولابد لأجل فهم القرآن والحديث النبوى من معرفة اللغة العربية معـرفة دقيقة ، وقد قام اللغويون والنحاة بجهود عظيم فى البصرة والكوفة لخدمة هذه اللغة .

فاذا أضفنا الى ذلك ما قام به الباحثون علمنا الى أى حد أصـبحت اللغة العربية : لغة العلم والفلسفة فى العالم ، وقال :

ومن مميزات هذه الأيام الالحاح فى البحث عما اقتبسته الأمم الغربية من ثقافة الاسلام ، ولقد كان ملتقى الأدبين فى الأندلس وصـقلية وبعض المدن الايطالية كالبندقية وجنوة ، وفى الحروب الصليبية أيضا حدث احتكاك فى الأقطار بين الشرق والغرب وقد كان لتأثير الاسلام فى الأمم الغربية فى القرون الوسطى اشكالا مختلفة ، ويجب علينـا الرجوع الى تاريخ العلوم لنقدر ماكان للمسلمين من التأثير على الحركة العلمية فى مدارس الافرنج فى القرون الوسطى ، وأن لغتنا الفرنسية لاتزال الى اليوم محـافظة على كلمات اقتبسها من لغة العرب وفى ذلك لمحـة دالة على ما وراء ذلك من من تأثير .

ويمضى هنرى لاوس فى عرضه فيقول :

ثم لاحت مبادىء النهضة الاسلامية فى العصور الأخيرة ، وللثقـافة الاسلامية عدة اتجاهات أهمها الحركة « السلفية » التى يراد بها الرجوع الى بساطة الاسلام الأولى وتبتدىء هذه الحركة بابن تيمية وبتلميذه ابن القيم ، وأظن أن فى الشرق الأدنى طوائف من المسلمين تميل الى هذه الطريقة ،

وقد لاحظت أنا بنفسى اتجاها نحو ذلك فى المغرب ، وهناك تيار تفكيرى آخر ينتسب الى السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، وهو أقرب تناولا من الأول ، وقد شاهدت ميلا عظيما الى هذا التيار فى مختلف بلاد الاسلام فى الشرق والغرب

وهناك تيار تفكيرى ثالث يقوم به فريق يريدون أن يأخذوا من الغرب كل شيء بلا تميز ولا نقد ، وهم يريدون أن يتبعوا سنن الغرب فى الآداب

وأقول بغير دهان ولا خوف ولا افراط أن مصر ستكون عاصمة التفكير للعالم الاسلامى الممتد من بلاد جاوة الى أسواق الجاليات العربية والاسلامية فى أمريكا ، وسبب ذلك ان مصر سبقت غيرها من الأمم الاسلامية عن طريق الرقى والتقدم ، وللأزهر مركز جغرافى يجعله المدرسة الأدبية الجديدة للأمم الاسلامية المختلفة .

ليس الاسلام عدوا للنصرانية

يقول القس البريطانى اسحق تيلور وقد شهد له الباحثون بانصاف فى النظرة الى الاسلام وأهله :

« لما كان الاسلام داعيا الى نفسه ، انتشر فى قسم كبير من الدنيا ،وفاق غيره فى النجاح ، ليس تفوق الاسلام منحصرا فى أن الداخلين اليه أكثر عددا ، بل انه يكسب اقاليم يتقهقر فيها غيره ، فقد امتد دين الاسلام من المغرب الى جاوة ، ومن زنجبار الى الصين ، ثم هو ينتشر فى أفريقيابخطوات العباقرة ، فمتى دخلت قبيلة افريقية فى الاسلام اختفت عنها فى الحين الوثنية وعبادة الشيطان وعبادة البشر ؟ وأكل لحم الانسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب وحلت بهم النظافة وشعروا بالعظمة واحترام النفس وصار قرى الضيوف عندهم من الواجبات

الدينية ، مع نبذ شرب المسكرات وتحريم القمار وفوضى اختلاط الجنسين وصارت طهارة العرض من أعظم الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل وحل العمل والكد محلهما ، وابدلت الدعارة والانهماك بالانقياد للشرع وتغلب النظام والرزانة على الشقاق وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد وتعلموا الشعور بالانسانية واللطف والاخوة ، ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه .

ليس الأهم ان نوضح انتشار الدعاية الاسلامية ، بل اهم منه ان الاسلام متى وقع فى كفه أحد قبض عليه بيد من حديد فلا يغلبه ، وفوق ذلك كله فالاسلام أقوى وأكمل دين اجتماعى فى القناعة والاعتدال فى تناول اللذات ، وان اتصلت الرذيلة بالتجارة الغربية الزاحفة على العالم الاسلامى .

أما الاسلام فان تمدنه خال من غمط الناس واحتقارهم ، وهو يحض على تعلم الكتابة والقراءة ، ولبس الثياب اللائقة والنظافة البدنية ، والصدق وعزة النفس .

والحق أن تمدين الاسلام وتقويمه النفوس لعجيب .

وبعد فليس الاسلام عدوا للنصرانية ، بل هو أنصف النصرانية ، والاسلام دين عام لجميع الأقوام ، ليس منحصرا مثل اليهودية فى شعب واحد بل عام شامل لجميع أهل الأرض ، والمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياءالسابقين وفى مقدمتهم ابراهيم وموسى وعيسى . ليس فى تعاليم محمد شىء يعادى النصرانية أو يضادها .

ويستطرد القس تيلور فيقول :

جاء الاسلام فجرف الخرافات الفاسدة ، وكان خصما شديدا للتبتل الذى يزعم أنه تاج التقوى ، وجاء بعقيدة الدين الأصلية القائمة على توحيد الله وتعظيمه ، وابدال التبتل والرهبانية بالرجولة كما فتح باب أمل للرقيق ، وباب اخوة للنوع الانسانى كله واعترف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية والفضائل التى يعلمها الاسلام هى التى يمكن للشعوب البشرية النامية أن

تفهمها ، الاعتدال فى التمتع بالملذات والنظافة والعدل والصبر والشجاعة والاحسان والضيافة والصدق والرضا بالقضاء . فأمكنهم أن يعلموا أصول الفضائل الأربع وان يجتنبوا السيئات المهلكات .

ويفوق الاسلام غيره من الأديان فى أن الأخوة التى يدعو اليها عملية وأن المساواة الاجتماعية تامة بين جميع المسلمين ، فمتى دخل شخص فى الاسلام انتظم فى سلك الاخوة الاسلامية وصار عضوا فى جمعية يبلغ تعدادها (كذا) مليونا .

ولقد أبطل الاسلام عادة قتل البنات وجعل لكل امرأة حماية شرعية .

٧ ـ أما العلامة المؤرخ البريطانى (أرنولد توينبى) فقد عرض للاسلام فى مواضع مختلفة فى دائرة معارفه التاريخية وقد حاول فى بحثه هذا الذى نورد ملخصا له ان يستكشف موقع الاسلام تاريخيا على قدر غير قليل من الانصاف ويرى توينبى أن الاسلام بدا كديانة قومية للعرب وفى نفس الوقت ديانة عالمية لكل البشرية ويقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

هناك بطبيعة الحال تأصيل بمقتضاه لايمكن أن يترك رجل عظيم جدا العالم من بعده كما وجده أولا ، وانما هو يصنع أثرا كبيرا على التاريخ اللاحق ، وهذا هو عين الحق بالنسبة الى النبى محمد .

ويقارن العلامة توينبى بين انتشار الاسلام فى منطلقه الأول وبين انتشار المسيحية وعنده أن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو بولس ، ويرجع ذلك الى أنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة آنذاك هى «الامبراطورية الرومانية» واستغرق تمسح الامبراطورية الرومانية مدة ثلاثمائة سنة ، اما الاسلام فقد استطاع ان يقيم دولة فى حياة الرسول ، ولقد انبسطت هذه الدولة بعد وفاته حتى أصبحت دولة عالمية .

ثم أشار توينبى الى مظهر اتساع الاسلام بحسبانه ديانة عالمية وأرجع السر فى انتشاره الى أن الفاتحين العرب لم يكونوا دعاة قساة ، بل كانوا سمحاء رحماء ، فضلا عما ضمن لغير المسلمين من أهل الكتاب من حياة طيبة وحرية فى العبادة .

ويستطرد توينبى فيقول :

على أن دخول الناس الى الاســلام بأعداد ضخمة ، داخل الممتلكات السابقة للخلافة ودخولهم اليه خارج الحدود السابقة لها لم يبدأ الا بعــد سقوط الخلافة فى بغداد ، ولقد حلت الأزمة الكبرى حين ذاك بالنســبة للاسلام حين بلغت الغزوات الهجومية ذروتها ، الغزو المغــولى فى القرن الثالث عشر من التاريخ المسيحى ، وكانت خراسان والعراق تعانيان من انخفاض فى السكان ، ولقد كانت هناك مفاتحات بقصد القضاء على الاسلام بين المغول الذين وصلوا الى الفرات ، والصليبيين والغربيين الذين ما فتئوا ملتصقين ببعض القلاع على طول ساحل سورية ، بيد ان الاسلام تغلب على هذه الأزمة فقد حافظ الاسلام على قلعتين عسكريتين وسياسيتين ، أولهما تتمثل فى قوة المماليك الأتراك فى مصر وسورية وثانيتهما تتمثل فى قــوة تركية أخرى شبه القارة الهندية ، وكان المماليك هم الجنود الوحيدون فى القرن الثالث عشر الذين كانوا أكثر من مجرد ند للمغول ، ولقد أغار المغول على غرب الفرات وشرق نهر الهندوس ولكنهم لم يتمكنوا أبدا من أن يقيموا استحكامات دائمة خلف النهرين ثم ان الاسلام قهر المغول آخر الأمــر فى ايران والعراق وكذلك فقد هزم الاسلام المسيحية النسطورية فى المنافســة على هداية المغول .

ويمضى توينبى فيقول :

لقد حرر العرب المسلمون سلسلة — من البلدان الشرقية من سلطان اغريقى — رومانى مسيحى — من سوريا الى أسبانيا عبر شمال أفريقيا وقد كانت تلك البلدان تحت الحكم الاغريقى أو الرومانى نحو ألف من السنين ، منذ فتح الاسكندرية الأكبــر للامبراطورية الفارسية واســقاط الرومانيين لقرطاجة ، وذلك بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر .

***

وواصل المسلمون فتحهم للهند على مراحل فنجحوا فى الاستيلاء عليها كلها تقريبا ، وفوق ذلك سار دينهم «سلما لا حربا» الى أبعد من تلك الانحاء،

فتوغل فى اندونيسيا والصين فى الشرق وفى افريقيا الاستوائية وفى الجنوب الغربى ، وكانت روسيا قد خضعت زمنا فى العصور الوسطى المتأخرة للتتر الذين أصبحوا مسلمين واقتحم العثمانيون المسلمين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ما بقى من المسيحية الارثوذكسية الشرقية فى آسيا الصغرى وفى جنوب أوربا الشرقى وحاصر هؤلاء الأتراك « فينا » للمرة الثانية فى زمن لا يتعدى ١٦٨٢ — ١٦٨٣ ومع ان اخفاق ذلك الحصار كان بداية لهبوب الرياح فى صالح الغرب فى معركته مع الامبراطورية العثمانية ، فان « راية الهلال » كانت ولم تزل ترى خفاقة على ساحل الادرياتيك الشرقى مقابل ساحل ايطاليا حتى سنة ١٩١٢ .

ويقول :

ان عقيدة التوحيد — التى جاء بها « الاسلام » هى أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم ، فنقول ان المهم فيها ليس ما يؤدى من مناسك وانما هى رمز للاخاء الذى يربط المسلمين بعضهم ببعض دون تفرقة لونية أو عنصرية ، وما دام الأمر كذلك فمن الخطر على الاسلام تعطيل هذه الشعيرة .

ان المجتمع الاسلامى هب ظافرا منصورا فى مرحلتين من مراحل التاريخ، أولاهما ـ عندما حرر مصر وسورية من السيطرة الهلينية التى ظلت جاثمة على صدر البلدين طوال ألف عام ، وثانيتهما عندما وقف « عماد الدين زنكى » ونور الدين وصلاح الدين والمماليك صامدين فى وجه العدوان الصليبى فى الغرب والتتار فى الشرق .

***

ان آفة المدنية المعاصرة هى الصراع الطبقى والعنصرية وان الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقى بتقرير مبدأ الأخاء الاسلامى والمساواة المطلقة بين المسلمين ، اننى ادعو العالم الى الأخذ بهذا المبدأ الاسلامى وأدعو الغرب الى نبذ معاداة العرب وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الفناء .

عندما كانت حضارة الغـرب الرومانية تنحدر الى الهـاوية فى القرن السابع المسيحى ، وظهرت الحضارة الاسلامية الفتية اصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخط الجديد واشد ما خشيه الغرب من الحضارة الاسلامية الناشئة انها كانت تستند الى مثل أعلى فوق المادة لا ينفـع فى دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية .

ان الاسلام قد استنكر الوثنية والشرك وعبادة الأصنام واسترد عبادة الاله الواحد الذى دعا ابراهيم الى عبادته من قبل .

***

٨ — وحين نراجع ما كتبه الدكتور (بول دى ركلا) نجده يعـرض لجانب آخر من علاقة الاسلام بالغرب وكلامه متشح بالانصاف الى حد كبير ومن ذلك قوله :

آن لنا أن نعرف ويعرف العالم أجمع جوهر هذا الدين لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب بل هى سيئة جدا ، وأرى من جهة ثانية أننى أكون اسديت الى قومى الفرنسـيس خدمة اذا ما أوقفتهم على حقيقة دين جاء بمبادىء فيها كل الفوائد لأعمالهم اللهم اذا انقـادوا للحق واتبعوا أوامره الجلية .

دين يجب ألا نكتفى بتسميته دينا ونقف ، بل لنعطيه اسـمه الحقيقى ولنسميه فلسفة حياة وبذلك نكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان .

ولست بمغال اذا صرحت علنا وقلت ان الاسـلام مفتـوح بابه على مصراعيه وهو أوسع الأرجاء ليتلقى الرقى الحديث الذى أنتجته الأجيال الطويلة وليس كما يزعم التعصب بمحدود الأطراف وضيق المدخل لأن تعاليمه الرفيعة وضعت لكرور الدهر وستبقى خالدة وضاءة الأنوار تكسـف كل مدينة تتمخض عنها العصور .

ويكفيه فخرا أنه لا يقر مطلقا بالقاعدة الشاملة (لا سلام خارج الكنيسة) التى يتبجح بها كثير من الناس . وقد أظهرت لنا الأيام انه هو الدين الوحيد

الذى حل بعدل مشكلة حقوق البنين وواجباتهم باعترافه بالمولود ضاربا عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظـام الطبيعة ونواميسـها الذى أوجده الدين الكاثوليكى بحق الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين ، اذ فرق الدين الكاثوليكى بينهم فأعطى الأول كل الحقوق وحرم الآخر من كل الحقوق فعمل كهذا مناف لسنن الطبيعة وجريمة كبرى نقترفها بحق الأولاد غير الشرعيين .

وان الاسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذى أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيه فخرا أنه قدس الانسال وعظمها ليرغب الرجل بالزواج ويعرض عن الزنا المحرم شرعا وتشريعا .

وان الاسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التى لم تزل للآن تشغل مشترعى الغرب بتعقيداتها .

فالاسلام هو الدين الديمقراطى الوحيد سواء أكان بتعاليمه أم بشرائعه أو بعادته فهو لا يعترف مطلقا بالزعامة الدينية وما الرتب والألقاب سوى نعـوت شرقية تعطى لبعض الأشخاص الذين لهـم مركز بين فى الهيئـة الاجتماعية ولا تورث للاعقاب .

فالاسلام وهو فى ترق مستمر يستحق ولا ريب أن تدرس تعاليمه من قبل عظماء رجالنا الموكول اليهم أمر نشر نفوذنا ومع الأسف قد أساءواالعمل بالاغضاء عنه لأنهم يجهلون جوهره الثمين مساقون فى ذلك الى اتباع خطى أسلافهم فهم مقلدون ليس الا .

٩ ـ أما المؤرخ العـلامة روم لاندو الذى طاف بالعالم الاسلامى واتصل بالمسلمين والعرب فى مختلف البقاع فيقول فى كتابه الاسلام والعـرب أن الاسلام رسالة اجتماعيـة تتمتع فيها مصلحة المجتمع الكلية بالاهمية الرئيسية ويمضى فيقول :

نشأ محمد يتيما فى كنف أحد أعمامه « أبى طالب » منفقا ساعات طوالا متوحدا فى مكة أو فى ضواحيها يرعى الغنم ، وفى امكان المرء أن يتخيل فى يسر ما استشعره الشاب الحساس من وحدة وانفراد والأثر الذى كان لابد لهذا الوضع أن يتركه فى تكوينه العقلى ، والواقع أن ما نزل عليه بعد من وحى لم يهبط فى فراغ ، بل هبط فى جو من الاستيطان المحتوم ، والتساؤل الروحى ، وكان محمد فى أوائل العقد الثالث من عمره عندما عهدت اليه « خديجة » فى قيادة قوافلها التجارية ، وكان فى خدماته المخلصة لها وفى أمانته ما جذب مستخدمته اليه ، فاذا بها تسعى زوجا له .

ولم ينسب محمد فى أى يوم من الأيام الى نفسه صفة الوهية أو قوى أعجوبية ، ولقد كان حريصا على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لابلاغ الوحى للناس . كان محمد تقيا بالفطرة وكان من غير ريب مهيأ لحمل رسالة الاصلاح التى تلقاها ، وبالاضافة الى طبيعته الروحية كان فى جوهره رجلا عمليا عرف مواطن الضعف ومواطن القوة فى الخلق العربى ، وفى نفس الوقت كان محمد يملك ايمانا لا يلين بفكرة « الاله الواحد » . وعزما راسخا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التى كانت سائدة بين الوثنيين العــرب .

وكانت مهمة محمد هائلة ، كانت مهمة ليس فى ميسور « دجال » تحدوه دوافع أنانية وهو الوصف الذى رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربى ان يرجو النجاح فى تحقيقها بمجهوده الشخصى ، والزعــم القائل بأن فترات تلقيه الوحى كانت فى الواقع نوبات صرع خاطىء على نحو جلى ، وذلك بأن من يتعرض لمثل هذه النوبات لا يمكن أن يكون مالكا وعيه ومنطقه الى حد القدرة على النطق بمثل المقاطع العميقة من وجهة النظر الفكرية التى تقع على كثير منها فى القرآن ، وان الاخلاص الذى تكشف عنه محمد فى أداء رسالته وما كان لاتباعه من ايمان كامل فيما أنزل عليه من وحى ، واختبار الأجيال والقرون « كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأى ضرب من الخداع المتعمد . ولم يعرف التاريخ قط أى تلفيق « دينى » متعمد — حتى ولو كان صاحبه دجالا عبقريا — استطاع أن يعمر

طويلا . والاسلام لم يعمر حتى الآن على ما ينوف على ألف وثلثمائة سنة سنة وحسب بل انه لا يزال يكسب فى كل عام ، أتباعا جددا ، وصفحات التاريخ لا تقدم الينا مثــلا واحدا على محتال كان لرســالته فعل فى خلق امبراطورية من امبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلا .

ان الشكل المكتوب للوحى الذى تلقاه محمد مثبت وفقا للاعتقاد الاسلامى ، كما أنزله الله تماما عن طريق جبريل فقد دون أصدقاء الرسول كلماته على أى سطح تيسر لهم الوقوع عليه ولكن هذه المدونات لم تجمع كلها فى كتاب واحد الا برعاية عثمان الخليفة الثالث .

***

ويجد المسلمون الهداية والالهام فى المقام الثانى بعد القرآن فى السنة وهى مجموعة أقوال محمد وما ثبتت صحته من أفعاله ، ولقد جمع «الحديث» وهو الاسم الذى يطلق على هذه المجموعة فى كتب متعددة ومن بلاد العرب الوثنية اقتبس الاسلام بعض العادات والاعراف ولكنه طهرها من صبغتها الوثنية ، لقد احتفظ بالحج الى مكة ولكن بعد أن حطم مئات الأصنام التى سادت الكعبة .

وفى المقام الثانى فى الاهمية بعد الايمان بالله ، أكد الاسلام على حياة المؤمن المقبلة فى الجنة ، وفى ذلك الجو الذى كان مشحونا بالريبة الكاملة أعلن محمد عقيدة جعلت جميع المؤمنين أكثر من أخوة . لقد كانت مهمة « الاسلام » أن يحول قانون الشرف والوحدة القبلى الضارى الى عقيدة دينية منظمة خليق بها أن تشمل البدوى والمدنى فى آن واحد .

هذه العقيدة الداعية الى تساوى الناس أمام الله ، ووحدة المؤمنين فى الله أحدثت تغييرا عميقا فى تفكير العربى وسلوكه . ولقد كان ثمة تعبير أصــيل عن المســاواة فى صدر الاســلام الأول ، تجلى فى الطريقة الديمقراطية التى اختير بها خلفاء محمــد الأولون وانعــدام التمييز العرفى ونظام الطبقات الاجتماعية .

وبعض الكتاب يطلق على المسلمين اسم « المحمديين » وهذا خطأ يوهم السامع بأن المسلمين يعبدون أو يؤلهون الرسول .

ان « الاسلام » تطبيق يطلق علما على ذلك النظام الايمانى المبنى على القرآن وهو مشتق من لفظة « اسلم » أى « اذعن » العربية ولفظة « أسلم » تعنى من أسلم نفسه لله .

وان روح المفهوم القرآنى لله هو البساطة بعينها « الله لا اله الا هو » وقد أنشأ المسلمون مفهوما لوحدة الله لا يعرف اللين البته . والواقع أن هذا المفهوم قد مثل خطوة جبارة يخطوها الرجل العربى برغم ما كان يكتنفه من مئات الآلهة التى غصت بها الكعبة ، والقرآن يؤكد على أنه ليس ثمة اثم أشنع من الايمان بأن لله شركاء ، وذلك حين يقول : « أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ويمكن تلخيص وجهة النظر السنية بهذه الكلمات : الله واحد ، أحد ، فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولد » .

فالله عند المسلم هو خالق الكون وسكانه ، وقدرة الله أهم فى نظر المسلم من محبة الله بكثير ، وليس عجيبا أن تكون فكرة قدرة الله وقوته أقرب الى فؤاد العربى العائش فى محيط عسير قاس ، من فكرة المحبة وثمة مفهوم آخر « لله » كان ذا شأن عظيم ولا يزال عند الكثرة الكاثرة من المسلمين ، أعنى المفهوم القائل بأن الله موجود فى كل مكان وان وجوده ليس مقصورا على أى مكان أو حيز أو زمن بعينه .

وواجبات المسلم الدينية الرئيسية تدعى فى بعض الأحيان « أركان الاسلام الخمسة » هى التى تؤلف شعائر الاسلام بالنسبة الى المسلم العادى .

وقد مزج الاسلام ما بين الاصلاح الاخلاقى والعبادة الدينية مزجا ينسجم انسجاما رائعا مع أمزجة العرب وحاجاتهم .

ولم يكد الاسلام يولد حتى واكبه النجاح والفتح ، فالاسلام فى أساسه دين علمى ، فالقواعد التى ينص عليها القرآن ليست جامدة ، ولقد كيفت وفقا لما قضت به الأحوال والظروف .

. وفى شكل المصلى المسلم المتقوس ، وفى شكل الكعبة المكعب وفى مستطيل الجامع المقبب ينعكس الشعور الاسلامى بالاستقلال الذاتى . ان المسلم لا يستشعر أن الله هو « هناك فوق » بل يستشعر أنه موجود فى ذات نفســه .

ويمضى روم لاندو فيقول :

والقواعد الأساسية التى تقوم عليها الشريعة الاسلامية هى « الحرية » التى هى هبة من هبات الله ، وقد نص الرسول على هدفها بقوله : يسروا ولا تعسروا ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، ومن المهم أن نشير هنا الى الشريعة التى برغم هيمنتها الكاملة على الجماعة الاسلامية لا تلزم غير المسلمين ، والحق أن اهتمام الاسلام الرئيسى لينصب على المجتمع أكثر من انصبابه على الفرد ، ومن أجل ذلك تعنى الشريعة على الجملة بالمظهــر الاجتمــاعى من القانون .

ان الاسلام رسالة اجتماعية تتمتع فيه مصلحة المجتمع الكلية بالأهمية الرئيسية ، فالفرد بما هو فرد محجوب دائما بالمجموع ، وان التوكيد الأساسى فى الاسلام منصب على قوة الله وقدرته ومن هنا يذعن المسلم التقى له تعالى من غير تردد ولا مناقشة .

وكان محمد قد أبلغ الناس رسالة لا تقر أى وساطة بين الله وعبده ، ولا ترضى القول بأى تجسد .

ويختتم روم لاندو بحثه الذى لخصناه فى هذه السطور فيقول :

والواقع أن القاء نظرة على أسماء الله الحسنى التســعة والتســعين لتعطينا فكرة عما يعتبره أهل السنة أساسيا فى مفهومهم لطبيعة الله واذا أردنا الاجمال استطعنا القول أن فى الاسلام ايمانا بواحــدنية الله وقدرته الكاملة ، ووجوده فى كل مكان وعلمه بكل شىء ، ووعيه ذاته وطبعا بجميع الصفات التى تعددها أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين .

الباب الرابع

الاسلام والعلم

وقد عرض درابر لنظرية النشوء والارتقاء عند المسلمين فقال : ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور نقل تحف الملك الى بغداد وجعلها عاصمة فخيمة ، فلم يأل جهدا فى بذل الوسع فى درس العلوم وتأسيس مدارس الطب والشريعة ، واتبع هارون الرشيد جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر باضافة مدرسة الى كل مسجد ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق الا فى خلافة المأمون ، فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى . وجمع اليها كتبا لا تحصى وقرب اليه العلماء . وبالغ فى الحفاوة بهم .

***

ذاق العرب من الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويشحذ الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة ، أما فى العلوم فقد كان توفقاتهم فيها ناشئة من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث فانهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى الى التقدم وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى ، والدستور العلمى والحسى .

***

ويلاحظ المطالع لكتبهم العديدة فى الميكانيكا والايدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والأبصار بأنهم قد اهتدوا الى حلول مسائل عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لجملة آلات للتقطير والتصعيد والاسالة (اسالة الجوامد) والتصفية الخ ، وهذا بعينه هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات : وهى آلات لقياس أبعاد الكواكب ، وهذا أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على

ثقة تامة من نظريته ، وهو أيضا الذى أرشدهم لعمل الجداول على الأوزان النوعية للأجسام والازياج الفلكية (جداول تعرف منها الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند ، وهو الذى أيضا أوجب لهم هذا الترقى الباهرفى الهندسة وحساب المثلثات ، وهوالذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندسية .

ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصلوا الى تكوين المكتبات وقد قيل أن المأمون نقل الى بغداد مائة حمل بعير من الكتب ، وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه احدى مكاتب القسطنطينية التى كان فيها بين الذخائر الثمينة الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية ، فأمر المأمون بترجمته للعربية وسماه (المجسطى) .

وقد حصلت العناية بأمر هذه المكاتب ، حتى أن مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة ألف كتاب معتنى بكتابتها وتجليدها غاية الاعتناء وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف مجلد فى الطب والعلوم الفلكية فقط ، وكان من نظام هذه المكتبة انها تعير كتبها للطلبة الساكنين فى القاهرة وكان بتلك المكتبة كرتان أرضيتان احداهما من الفضة والأخرى من البرونز قيل أن الأولى صنعها بطليموس الفلكى نفسه ، وانها استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب ، وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد ، وكان جدول أسمائها وحده محتويا على أربعة وأربعين جزءا ، وغير هذا فقد كان فى الأندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكتبات الخاصة ، ومما يحكى أن أحد الدكاتره العرب رفض دعوة سلطان بخارى له محتجا بأن كتبه لا يمكن نقلها الا على أربعمائة بعير .

لقد كان يوجد فى كل مكتبة كبيرة سجل خاص للنسخ والترجمة وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه ، وكل المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة أو حجر .

وكان الملك الاسلامى العربى مملوءا بالمدارس والكليات وكانت بلاد المغول ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها ، من طرف من أطراف المملكة الواسعة التى فاقت المملكة الرومانية كثيرا مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب ، وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيراك فى الأندلس ، قال جيبيون : كان أمراء المسلمين فى الأقاليم يناظرون الملوك فى حماية العلم والعلماء وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة ، ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس كلية علمية فى بغداد ، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا ، وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غنى وفقير ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة .

***

ولقد اهتم الفلكيون العرب بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها ، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة والأشكال والساعات المائية والسطوح المدرجة الشمسية وهم أول من استعمل البندول « الرقاص » . أما عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء ، وبعضا من محللاتها الشهيرة بحمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول (الاسبرتو) واستخدم العرب علم الكيمياء فى الطب لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية ، أما فى علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة .

أما فى الايدروستاتيك (علم موازنة السوائل) فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثا عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء .

أما فى نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الفرض اليونانى الذى يقول بأن الأبصار يحصل بوصول الشعاع من المرئى الى العين وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الاشعة وانكساراتها ، وقد اكتشف « الحسن

ابن الهيثم » الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق ، وكذلك فى الغراب نراهما قليلا بعد أن يغيبا .

ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة وانتشرت معامل الصنائع لكل أنواع المنسوجات وكانوا يذيبون المعـادن وكانوا يجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها .

وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر وقد وهبوهما وقتا كبيرا وحبوهما مكانة من أفئدتهم وهم الذين علموا الأوروبيين لعب الشـطرنج وبثوا فيهم ذوق مطالعة الأقاصيص .

وكان للعرب لذات روحية حتى فى مجالات الأدبيات الفلسفية فكان لديهم مؤلفات عالية جدا فى تقلب الأحوال الانسانية وعلى نتائج عدم التدين وعلى زوال النعم ، وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته ، وانا ندهش أحيـانا حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر ، من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهبا حديثا كان يدرس فى مدارسهم ، وقد كانوا وصلوا به الى مدى أبعد مما وصلنا اليه وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة والمعدنية أيضا .

وقد احتفروا المناجم واسـتخرجوا منها الكبريت والنحـاس والزئبق والحديد والذهب وبرعوا فى صناعة الصياغة ومهروا فى سقى الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، حتى أن صفاح (طليطله) أصدق البراهين على ذلك ، ونعرف أنه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود ولورقهم شهرة عامة وانهم فى كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن .

واذا كانت لهم معلومات عالية فى الطبيعة النظرية خصوصا فى نظريات الضوء والأبصار فقد حفظت عنهم اختراعاتهم لأجهزة ميكانيكية من أدق ما يعرف، من نوعها واكتشافهم للجواهر التى تعد من أعظم أراكين علم الكيمياء

مثل الكحول وحمض النيتريك وقد سجلت لهم أكبر العمليات الأساسية مثل التقطير واثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة .

٢ — ويمضى العلامة شاتليه أستاذ العلوم الاجتماعية والاسـلامية فى الكوليج فرانس فى أوائل القرن فيصور العلاقة بين التوحيد الاسلامى وبين العلم فيقول :

ان اللسان العربى المبين الذى نزل به القرآن أهم رابطة وأوثق عروة بين أعضاء العائلة الاسلامية الكبرى لأنه اذا كان لا يتكلم بهذا اللسان فى المعاملات اليومية الجارية سوى الاسيويين والافريقيين بين نهرى الفرات والنيجر فمما لا مشاحة فيه أن النطق به جار على ألسنة المسلمين كافة فيما يرتلونه من الآيات القرآنية فى بلاد الصين وافريقيا الجنوبية من جهة وبين جزائر الفيلبيين ومراكش من جهة أخرى ، فضلا عن أن الكتابة بها عامة بين سائر المسلمين الذين يقرءون كتاب الله ، واذا وجد بين الأمم المسلمين أمما لم تتخذه لسانا لها فى معاملاتها اليومية فمما لاريب فيه أن لغاتهم هى قد تأثرت تأثرا محسوسا بذلك اللسان فانها استخدمت الحروف العربية فى تدوين لغاتها ، ومن هذا الفريق الأتراك والفارسيون والماليزيون ، واستعارت كثيرا من الألفاظ والكلمات العربية حتى أنك لتجد هذه الكلمات شائعة ومتفشية فى لغة الاورد والهندية ولغة السواحلية وغيرهم من بربر افريقيا .

ثم ان أساس الدين الاسلامى هو التوحيد وعماده وحدة التعاليم ، وان يكن ثمة اختلاف فى مذاهبه وطرائفه ، ولكن المسلم فيما بين شمال آسيا وجنوب افريقيـا وبين سواحل المحيط الهـادى وشطوط الاقيانوس الهندى وبين البحر الأبيض المتوسط والاقيانوس الاطلانطى ، وبالجملة حيثما يوجد مسلم ، يلقى أقواما يفهمون مراميه ويبادرون الى معونته .

***

والمسلمون منذ نهض بهم الاسلام لم يروا أمامهم من السبل ما يجدر بهم أن يتسابقوا فيه شوطا طويلا سوى الانكباب على العلم والعكوف على

العمل لما فيه خير الانسانية وقد ورثوا علوم اليونان المستفيضة ولم يكتفوا بأن يحرصوا عليها ، بل مدوا فى أطرافها ووسعوا فى نطاقها ، وأتوا فيها بالعجب العجاب .

وقد استبقوا ثمار هذه الأعمال الجليلة ، دانية القطوف بما شادوا من المؤسسات الضخمة ودور الكتب والمدارس الأهلية بالطلاب ، وقد بلغ من تعهدهم معاهد العلم بالرعاية انهم أنشأوا فى بغداد مدرسة للتمرجمين والمعربين وجامعة تضم بين جدرانها ستة آلاف طالب من جميع الطبقات كانوا يتلقون العلم مجانا وأقاموا المراصد الشامخة البناء لرصد كواكب السماء ، وأينعت ثمار العلوم الرياضية وأبرزوا من حيز العدم العلوم الكيمية وشادوا المستشفيات والملاجىء ، وتفننوا فى أساليب الأبنية واستنبطوا لها كل ما راق الناظر ووافق الذوق والخاطر ، وبرعوا فى علم الحيل (الميكانيكا) براعة لم يسبقهم اليها سابق ، ولم ينافسهم فيها منافس ، وكفى ما صنعوا من ساعات ضبط الوقت ، وما مهروا فيه من الدقة فى نسيج المنسوجات الفاخرة ، والطنافس الثمينة ، برهانا على حوزهم قصب السبق فى ميادين العلوم والفنون .

٣ — أما الدكتور جورج سارطون فقد عرض لمنهج الاسلام فى البحث العلمى عرضا وافيا منصفا . وسارطون عالم بلجيكى الأصل ولد عام ١٨٨٤ وأحرز عام ١٩٠٦ درجة دكتور فى العلوم وأتيح له عام ١٩٣١ أن يزور بلاد الشرق العربى حيث تعمق فى دراسة العربية والاسلام .

وفى كلية المقاصد الاسلامية فى بيروت ألقى محاضرة تحدث فيها عن مقام العرب فى العلوم الطبيعية فكشف صفحة زاهرة من صفحات الحضارة الاسلامية .

وأبرز مؤلفاته « مقدمة لتاريخ العلم » ، وفيه أنصف حضارة العرب والاسلام وقد أصدر منه ثلاثة أجزاء .

وقد آثرنا أن نلخص مفهومه لتراث العلم ومشاركة المسلمين فيه :

يقول :

ينتمي بعض عمالقة العصور الوسطى الى الحضارة الغربية فكان منهم الرياضيون والفلكيون أمثال الخوارزمي والفرغاني والبتاني وكان فيهم الفلاسفة أمثال الفارابى ، والغزالى ، وابن رشد ، وابن خلدون ، كما كان فيهم الأطباء أمثال الرازى وعلى بن عباس وأبو القاسم وابن سينا ويفوق حصر الكل هذا بكثير ، ولم يقنع العرب بالعلم الاغريقي والهندى ، هم اعجبوا بالكنوز التى وقعت بين أيديهم واحترموها ، الا أنهم كانوا عصريين ومهتمين بالعلم مثلما نحن اليوم ، فرغبوا فى المزيد ، هم نقدوا اقليدس وأرشميدس ، وناقشوا بطليموس ، وحاولوا تحسين الجداول الكلية وحذف مواطن الخطأ المستترة فى النظريات المقبولة ، وساعدوا على تطور الجبر ، وحساب المثلثات ، وهيأوا الطريق أمام علماء الجبر فى أوربا فى القرن السادس عشر ، كما أتيحت لهم الفرصة لتحديد مفاهيم جديدة ووضع مشكلات جديدة واضافة اضافات جديدة الى التراث السابق .

وللحضارة العربية أهمية خاصة عند دارسى التراث الانسانى بصفة عامة ولهؤلاء الذين يهتمون باظهار تكامل الجهود الانسانية مرة أخرى فى وجه الأقطار الوطنية والعالمية ، وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة غربية ، والحضارة الصينية حضارة شرقية ، وكانت الحضارة العربية غربية شرقية معا بسبب امتدادها على طول الطريق من المغرب الأقصى الى الشرق الأقصى ، وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، وكانت الحضارة الهندية حضارة المحيط الهندى ، وكانت حضارة الشرق الأقصى حضارة المحيط الباسفيكى بآفاق البحارة العرب كانوا يملأون كل محيطات العصور الوسطى ، وعلى حين كانت الحضارتان اللاتينية واليونانية مسيحيتين ، والحضارة العبرية يهودية ، وحضارة شرق آسيا بوذية ، فان الحضارة العربية كانت اسلامية فى المحل الأول ، وان لم تكن اسلامية تماما ، ممتدة بين مسيحية الغرب وبوذية الشرق . مجاورة لهما فى آن واحد منهما .

وقد ظهر الدين المسيحى فى الشرق الأدنى ، فحمله القديس بولس الى الغرب حيث تطور هناك باعتباره دينا غريبا ، وعلى العكس من ذلك فقد نشأت البوذية فى الهند ثم رحلت نحو الشرق ، وكما أن تاريخ المسيحية ضرورى لفهم تطور حضارتنا نحن ، فان تاريخ البوذية ضرورى لفهم حضارة الشرق الأقصى ، وكان الدين فى الحالين هو الذى حمل العلم على جناحيه ، أما الدعوة الاسلامية التى أحيت عقيدة التوحيد فانها نجحت أعظم نجاح ونفذت أعمق نفاذ الى ممالك الغرب المسيحية وممالك الشرق البوذية على السواء .

وبينما كانت الحضارة الهندية مقفلة على نفسها ، وأكثر منها فى ذلك الحضارة الصينية ، فقد اختلطت الحضارة العربية بالحضارة اللاتنية اختلاطا كثير التشابك ، فاذا كان بالامكان أن نستبعد ما حدث فى الهند والصين من تطورات ، حين نكون بازاء تفسير الحضارة الغربية ، فان استبعاد التطورات العربية ليس فى استطاعتنا ، ان قصة الحضارة العربية تيسر لنا فهم حضارتنا لأنها ما هى الا جزء داخلى منها .

واذا كانت اللغات التى كتب بها العلم والفلسفة فى العصر الوسيط لغات أربعا هى : اليونانية والعربية واللاتينية والعبرية وكانت كلها ذات أهمية ، فان أهمها جميعا كانت هى اللغة العربية . وقد انفصل الكتاب اللاتينيون عن المنابع الاغريقية حتى نضب علمهم أو كاد باللغة اليونانية ، وفقدوا كل وسائل الاتصال بالمنبع الرئيسى للعلم لولا العرب .

وكما أن المسلمين تحققوا فى حاجتهم الى العلم لكى يقيموا حضارتهم قد تحقق اللاتينيون كذلك من حاجتهم الى العلم « العلم العربى » فكانت ضرورة لفهم اللغة العربية . ان العلم قوة ، وقد ادرك الحكام المسلمون ذلك منذ المبدأ .

(٤)
معجزة العلم العربى

٤ — وفى بحث آخر لجورج سارطون يكشف جوانب أخرى عن موقف الاسلام من العلم — يقول :

أستطيع أن أؤكـد أنه لم يتح لنبى من قبـل ولا من بعـد أن ينتصر انتصارا تاما كانتصار الرسول محمد ، وان الاصرار على تفوق اللغة العربية خاصة أو على حاجة الدين اليها هو الذى جعل لها انتشـارها الحاضر ، ثم حفظ لها التفوق قرونا عدة » .

يجب أن نقف لحظة لأسرد عليكم حادثة واحدة من أخصب الحوادث الكبرى فى تاريخ الانسانية ، وهى ، « ظهور الاسلام » فقد ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشي — صلى الله عليه وسلم — فى مكة نحو (٥٧٠ م) ثم صدع بالدعوة نحو عام (٦١٠م) ، وعمره يومذاك أربعون سنة ، بعد أن عظمت خبرته بالناس ، وامتلأ صدره بايمان متقد وطيـد ، فى ذلك الحين كانت « مكة » المركز الرئيسى للتجارة فى شبه جزيرة العرب ، وسلك أهل مكة مع محمد صلى الله عليه وسلم كما سلك أكثر الأقوام مع انبيائهم ، ثم هاجر النبى الى يثرب التى أصبحت تدعى منذ ذلك الحين ، مدينة الرسول .

أما اسم هذا الدين الجديد فهو « الاسلام » ومعنى « الاسلام » أن يسلم الانسان نفسه الى الله ، أما اسم اتباعه فكان مشتقا من المصدر نفسه « المسلمون » وقد كان الاسلام كما أوحى به الى رسول الله ، وكما صدق به رسول الله « دينا بسيطا نقيا » .

ولكى أدل بأمثلة على عظمة الرسول ، أتحدث فى المرتبة الأولى عن « عبقرية اللغة العربية » ففى المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته ثم ان الاسلام نزل على الرسول باللغة العربية : لغة القرآن ولغة الوحى ولغة أهل الجنة ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة فى العالم واحدى الوسائل الأساسية للثقافة فى العصور الوسطى ، وهى الى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة فى جميع بقاع الأرض .

وان اللغة الوحيدة التى عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات فى الوجود ، ان خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جدا ، ويمكن لتلك أن تزداد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك ، والأنيق ، يسهل ايجـاد صيغ جديدة من الجذور القديمة .

ولغة القرآن على أنها لغة العرب ، كانت بهذا التحديد « كاملة » وها نحن هنا أمام اتفاق عجيب ، فان الرسول مع انه أمى كان يملك ناصية اللغة ، اذ آتاه الله بيانا ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحى الالهى أحسن تدوين ، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحيـــاة .

أما فى المقام الثانى فقد جعل الاسلام « الحج » أمر سهلا نسبيا ، لأولئك الذين يعيشون نسبيا فى شبه جزيرة العرب ، ولكن لما انتشر المسلمون فى بقعة واسعة من الأرض ، أصبح أمرا فيه شيء كبير من المشقة ، ينطوى على مصاعب لا تصدق ، وعلى أنواع من الحرمان من أسباب الرفة ومع ذلك فان عددا كبيرا من الناس وهذا يبعث حقا على الدهشة كانوا يقومون بالحج على الرغم من كل عائق .. وفى أثناء الموسم الذى خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تبدوان مكان انعقاد مؤتمر دولى ، وهناك كان المهتمون بالقضايا المتشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء .

وخلاصة القول ان الرسول جاء بدين توحيدى ، ثم انه شعر بتفـــوق اللغة العربية من غير ان يكون عارفا بلغة غيرها ، كذلك نجح فى الدعوة الى ايجاد مركز ثقافى للاسلام فى الحج .

واسمحوا ان أؤكد انه لم يتح لنبى قبل ، ولا من بعد أن ينتصر انتصارا تاما كانتصار الرسول محمد ، ان الاصرار على تفوق اللغة العربية — خاصة — أو على حاجة الدين اليها فى انتشارها الحاضر ثم حفظ لها هذا التفوق قرونا عدة ، ومن أجل ذلك لم يكن محمد نبى الاســـلام فحسب بل نبى اللغة العربية .

ولقد قبلت القبائل العربية الدين الجديد بسرعة مدهشة وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى فى تاريخ وجودها موحدة على أساس متين، على أساس الدين ، ولقد بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الاسلامية بعد سبع عشرة سنة فقط من الهجرة حين احتاج الغربيون الى ألف عام لوضع تقويمهم ولا ريب انه مما سهل وضع التقويم الاسلامى ورود الحث عليه فى القرآن

ولذلك كان جزءا أساسيا من الاسلام ، يقصد الآية « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا » •

ولقد بلغ المسلمون ما يجوز ان نسميه (معجزة العلم العربى) وقد أوردت كلمة « معجزة » لترمز الى تفسير ما بلغ اليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريبا عن نطاق التصديق . وليس لذلك شبه فى تاريخ العلم كله ، ويجب ان ندرك ان ذلك التطور الذى لا يكاد يصدق فى العلم العربى لم يبدأ الا منذ القرن الثانى للهجرة .

ويحاول نفر من المؤرخين ان يبخسوا قدر هذا الانتاج العظيم بادعائهم انه لم يكن فيه ابتكار ما ، وبان العرب لم يكونوا سوى مقلدين : ان هذا الحكم ينطوى على خطأ فادح ، فمن بعض الوجوه ليس ثمة شىء يمكن أن يعد ابتكارا صحيحا من أكثر من ذلك الظمأ الذى تملك على القادةالعرب حواسهم فى سبيل المعرفة ، على أننا لا نشك أن قسما من هذه المعرفة احتاج اليه العرب حاجة مباشرة للادارة والحكم •

وأعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك علم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد .

والواقع أن العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا ولو انهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم لحقوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية واذ لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكارا ، فليس فى العلم اذن ابتكار على الاطلاق .

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية فبلغت مداها على يدى رجلين غربيين : ومن غريب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان على مدى بضع سنوات وفى مدينة واحدة هى « قرطبة » التى كانت أعظم المدن فى غرب أوربا بهاء وعظمة والتى كانت المنافسة الغربية لبغداد ، وقد ثبت بالبراهين الوافية أن ما وصل اليه المسلمون من التقدم الفكرى والعلمى كان فى العصور الوسطى فى غاية الأهمية ، التى برهنت ان ثلاثة قرون على الأقل من القرن التاسع الى القرن الحادى عشر الميلادى شهدت تفوق العلم عند العرب .

ويقارن جورج سارلمون بين سماحة الاســلام وبين موقف غيره من الأديان من العلم فيقول :

ان « ابن النفيس » قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل ان يعرف ذلك ميخائيل سرفيت الاسبانى بمائتين وخمسين عاما . وقد عرف الغرب لابن النفيس فضله فى ذلك بينما سرفيت الاسبانى أحرق علنا فى جنيف بسويسرا عام ١٥٥٣ م .

أما التشريح فقد كان فى أوزبا ممنوعا البته ، فاذا جئنا الى الاسلام رأينا ان صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا فى المغرب . وما يقال عن الطب والتشريح عامة يقال عن أمراض العين خاصة فان المسلمين كانوا لا يزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم فى أمراض العيون .

أما اللغة العربية فقد استمرت حتى القرن الرابع عشر تحتل مكانا مرموقا فى عالم التأليف العلمى اذ كانت اللغة الثانية بعد اللغة اللاتينية من حيث الاتساع ، أما من حيث التأليف فقد وجب أن تكون بلاريب أرقى من اللاتينية يدلنا على ذلك كثرة ما نقل من كتب العلم والفلسفة فى العصور الوسطى من العربية الى اللغتين اللاتينيــة والعبرية ، ومع أن دانتى الليجيرى شــاعر ايطاليا لم يكن يعرف العربية فان كتابه « الكوميديا » الالهية متأثر بالاسلام الى حد بعيد ، وكذلك استمر أثر « ابن رشد » بارزا فى القرن الرابع عشر ، والحق أنك لا تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التى كافحوا بها فى سبيل العلم ، لقد عدت المعارك التى خاضها العرب ضد الفرنجة فى الأندلس وحدها (٣٧٠٠ معركة) وان امة تكون ايديها مغلولة بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة ثم لا تنسى رسالة العلم المقدسة بل تبلغ بالعلم والتفكير ذروة الرقى والتقدم لأمة عظيمة حقا .

٥ — أما الدكتور فرانز روزنتال فانه يعالج مناهج العلماء المسلمين فى مجال العلم والتأليف والتحقيق العلمى على نحو يدل على قدر وافــر من

المراجعة والتحقيق والدكتور روزنتال ألمانى الاصل مولود عام ١٩١٤ فى برلين وقد عمل أستاذا للغات السامية بالولايات المتحدة وأستاذ اللغة العربية فى جامعة بنسلفانيا ثم شغل كرسى اللغات السامية فى جامعة ييل وله أبحاث متعددة فى الفكر العربى الاسلامى أهمها كتابه عن مناهج المسلمين فى كتابة التاريخ وكتابه مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى :

ان أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جليا فى حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة — ملاحظتهم واختبارهم ، فانهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد ، ولذلك فان أسلوبهم فى البحث أكبر ما يكون تأثيرا عندما يكون الأمر فى نطاق الرواية والوصف .

ولذا يحتل التاريخ والجغرافية المقام الأول فى أدبهم وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة وبصفتهم مفكرين فانهم قد أتوا بأعمال رائعة فى حقلى الرياضات والفلك وللسبب ذاته نجح العرب فى التشريع وفى وضع قواعد اللغة من صرف ونحو فى شكل شامل محكم ، ان الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع فى أى بحث ، أما البحث الذى لا يعلم صاحبه الى اين سيؤدى به ولا النتائج التى قد يسفر عنها فيحرم فى الاسلام ، وحاجة هذا العلم ان يعرف الانسان ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله .

وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدر لم تؤثر التأثير السيء فى النشاط الفكرى الاسلامى طيلة قرون عشرة ازدهرت فيها الحياة الفكرية ، ومن الجلى الظاهر اننا لن نستطيع فهم الشرق والعرب والمسلمين جميعا صحيحا اذا ظل التحيز والتعصب مسيطرين على عقولنا ، ومن المزالق التى يندر ان يتحاماها الباحثون الغربيون عن تقديرهم البحث العلمى عن المسلمين انهم يضعون مقاييس أشد صرامة من تلك التى نطبقها على ذواتنا نحن الغربيين .

ويمضى الدكتور روزنتال فيقول :

لقد كان المؤرخون المسلمون كما كان علماء الدين أيضا يعتمدون على الوثائق المدونة ولم يكن للمعارف التى تعتمد عليها الذاكرة شأن فى تآليفهم ، ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر الجزازات التى كانوا يدونون عليها الملاحظات أو ينسخون فيها المقتبسات عنالكتب التىكانوا يقرأونها ، وينبغى لطالب العلم المسلم أن يعنى بتحصيل الكتب المحتاج اليها فى العلوم النافعة ما أمكنه شراء أو اجارة أو عارية لأنها آلة التحصيل ، ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ونصيبه من الفهم ، ويستحب اعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها ، واذا استعار كتابا فلا يبطىء به فى غير حاجة ، واذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصبا له ، وقد جاء فى ذم الابطاء برد الكتب المستعارة عن السلف نظما ونثرا كثيرا . ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير اذن صاحبه ، قلت وهذا محله فى غير القرآن ، فان كان مغلوطا أو ملحونا فليصلحه ، اذ لم يكن خط المصلح مناسبا فليأمر من يكتب ذلك بخط حسن ، ولا يكتب شيئا فى بياض فواتحه ولا خواتمه ، الا اذا علم رضى صاحبه ، ولا يعيره غيره ولا يودعه لغير ضرورة ، ولا ينسخ منه بغير اذن صاحبه واذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه مفروشا على الأرض بل يجعله مرتفعا ، واذا وضع الكتب مصفوفة فلتكن على شيء مرتفع غير الأرض لئلا تندى فتبلى ، ويراعى الأدب فى وضعها باعتبار علومها ، فيضع الأشرف أعلى الكل ، فاذا استوت كتب فى فن فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى ، وليجعل المصحف الكريم أعلى الكل ، ثم كتب الحديث الصرف كالبخارى ومسلم ثم تفسير القرآن ثم تفسير الأحاديث ، ثم الفقه ثم أصول الدين ، ثم أصول الفقه ثم النحو والتصريف ثم اشعار العرب ثم العروض ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير كيلا يكثر تساقطها ، ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس ولا مخدة ،

ولا مروحة ولا مستندا ولا متكئا ، واذا استعار كتابا فينبغى أن يتفقده عند ارادة آخذة ورده من ورقة محتاج اليها ، واذا اشترى كتابا نظر أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه ، واعتبر صحته ، واذا نسخ شيئا من كتب العلم الشرعية فينبغى أن يكون لها طهارة ، مستقبل القبلة طاهر البدن والثياب والحبر والورق ويبتدىء كل كتاب بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » وان كان مصنفه تركها فليكتبها هو ثم ليكتب قال الشيخ أو قال المصنف ثم يشرع فى كتابة ما صنفه المصنف ، وليختم بقوله : آخر الجزء « الأول أو الثانى » ويتلوه كذا وكذا ان لم يكن أكمل الكتاب فان أكمله فليقل : « تم الكتاب الفلانى » ففى ذلك فوائد كثيرة ، وكلما كتب اسم الله تعالى اتبعه بالتعظيم مثل تعالى أو سبحانه أو عز وجل أو القدسى أو تبارك وكلما كتب اسم النبى صلى الله عليه وسلم كتب بعد الصلاة عليه والسلام ، ولا يسأم من تكريرها واذا مر بذكر أحد الصحابة كتب رضى الله عنه ، واذا مر بذكر أحد من الأئمة والأعلام كتب « رحمه الله » .

ويمضى فيقول :

ولا يهتم المشتغل ، بالمبالغة فى حسن الخط ، وانما يهتم بصحته وتصحيحه ويتجنب التعليق جدا ، وهو خلط الحروف التى ينبغى تفرقتها ، ولا يكتب الكتابة الدقيقة لأنه ربما لم ينتفع به وقت حاجة الانتفاع به من كبر وضعف بصر ، والكتابة أولى بالحبر ، وينبغى ألا يكون القلم صلبا جدا فيمنع سرعة الجرى ، وعلى الكاتب مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به .

وينبغى أن يفصل بين كلامين أو حديثين بدائرة أو قلم غليظ ولا يواصل الكتابة كلها على طريقة واحدة . ولا بأس بحواشى الكتاب من فوائد متعلقة به وعليه ألا يكثر الحواشى كثرة يظلم معها الكتاب ولا بأس بكتابة الأبواب

والتراجم والفصول ونحو ذلك باللون الأحمر فانه أظهر فى البيان ، وفى فواصل الكلام .

وفى مجال المخطوطات كانت الدقة والأمانة فى النسخ من الشروط الأساسية التى يجب توافرها فقد يقصر الناسخ المحترف احيانا فى واجبه من هذه الناحية ، ولكن قل أن تجد ناسخا كان يتعمد الأخطاء قصد تغيير نص أو تحريفه ، وكان العالم المسلم حريصا على أوثق النسخ لاستنساخها .

وكانت أعظم النسخ قيمة تلك التى كتبها المصنف نفسه وعليها توقيعه ، لم تأتى فى الدرجة الثانية وتكاد تحل محل المخطوط الموقعة ، المخطوطة التى نسخها أحد الطلاب المصنف كما سمعها منه املاء فى حلقة الدرس أو باشراف المصنف نفسه .

وبصورة عامة نستطيع أن نقول ان « العلماء المسلمين » كانوا حذرين حريصين على الا يمسوا النسخة الخطية باصلاح أو تعديل .

***

وقد عنى علماء الحديث والفقه فى الدرجة الأولى بالأمانة والدقة فى ذكر المصادر المأخوذ عنها لأن « الأسانيد » هى جزء من مادة البحث ، وكل علم آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين « الحديث والفقه » ، تأثر الى حد بعيد بالأسلوب المتبع فى درسها ومعالجتها مثال ذلك كتب « التراجم » التى نشأت بدافع تدعيم علمى الحديث والفقه ، فان أصحابها كانوا يعنون عناية خاصة بذكر المصادر التى يأخذون عنها .

أما أصحاب الكتب التاريخية فانهم كانوا شديدو الحرص على ذكر المصادر التى يأخذون عنها ، وكانوا المؤلفون الذين يحرصون على ذكر

مصادرهم يشعرون بأنهم قاموا بما عليهم وفى أحيان كثيرة لم يعد العلماء يعتبرون العبارة « والله أعلم » تعبيرا مرضيا عنـــد التحفظ أو عدم الجزم بالرأى .

أما النقل من الذاكرة فلم يكن يعتبر عند العلماء المسلمين نقلا دقيقا وكانوا يشيرون اليهم وكانوا يقولون صراحة اذا نسى أحدهم المصدر الذى نقل عنه نصا ، كما فعل البيرونى ، واذا أرادوا الاشارة الى غاية اقتبـــاس اقتبسوه مقتضبا من مصدر آخر قالوا « انتهى ملخصا » .

ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العـــلم من غير دينهم ويحترمون الثقات منهم ايما احترام وقد ألف العلماء المسلمون كتبـــا لدحض آراء معينـــة ، وكلما رأى المؤلف موجبا للنقـــد فانه يثبت آراءه وملاحظاته ، وكانت القوائم النقدية لكتب المـــراجع تحتـــوى على تقـــدير المؤلف لكتب من سبقه من العلماء ، يذكرون هذه الكتب المراجع للتدليل على ان الموضوع الذى سبقت معالجته على أيدى القدماء ما ينبغى أن يعالج مرة أخرى على ضوء المعارف الجديدة .

***

وبصورة عامة نستطيع القول بأن العلماء المسلمين حرصوا الحرص كله على الحفاظ على الأفكار والأخبار التى كانوا يعتقدون ان لها قيمة فعلية .. وكثيرا ما كان العلماء المســـلمون يحاولون وضـــع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك عندما يجابهون المشاكل التاريخية التى يبحثونها ويعتقد « الطبرى » أن الظن والحدس لا يصلح أن يكون حكما فى اثبات الحقائق ، وان الحقائق لا يمكن الحصول عليها الا بواسطة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا ، ويوصى « رشيد الدين » عم « ابن أبى اصيبعة »

المؤلفين والمؤرخين ان ينظروا فى كل خبر نظرا عاريا عن محبة أو بغض وان يزنوه بميزان العقل والقياس وان يتفحصوه .

ومن الظاهر أن أقوال المفكرين المسلمين فى ترجمة حياتهم، تذكر لنا الصراع الفكرى الداخلى حول الشك الذى كان يخامرهم ، فى بعض العقائد الدينية فى فترة من فترات حياتهم وقد كانت الغاية المثلى للتربية عند المسلمين ان يقرب الانسان من الكمال ما امكنه الاقتراب فى كل ناحية من نواحى العلم فى سن مبكرة جدا ، فان ابن سينا يباهى بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال ، ولكن أكثر العلماء المسلمين لا يشاطرون ابن سينا رأيه فى أن تحصيل جميع العلوم واتقان كل الفنون أمر يسير كما تصوره هو ، فان كثيرين منهم قضوا الحياة كلها فى التحصيل ، ويقول القاضى الفاضل « البيسانى » فى رسالة بعث بها الى عماد الدين الاصفهانى « انى رأيت انه لا يكتب انسان كتابا فى يومه الا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل » فقد كان العلماء المسلمون يرون ان التغيير هو الذى يتحكم فى العلاقة بين الأجيال المتتالية ويقول (الازدى) فى كتابه (تاريخ الممالك الاسلامية) : ان الزمن لا يقف بل ان صفته الدائمة التغيير ، ولم تكن فكرة التطور الفكرى المستمر من جيل الى آخر فكرة غريبة كليا عن التفكير الاسلامى وكان « الرازى » يرى ان تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة ، وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجى بعين الاعتبار فى مجال الطب والكيمياء لم تكن فكرة التطور والنمو التدريجى غريبة عند العلماء المسلمين ، وقد اعتبروا بلوغ الكمال بمعنى أن المتأخر يتمم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التى يتصف بها التطور والنمو من جيل الى جيل .

وقد كانت نشأة العلوم فى نظر العلماء المسلمين نتيجة السعى والجهد العقلى عند الانسان أو نتيجة وحى سماوى .

٦ ـ أما الدكتورة سجريد هونكه فانها قد قدمت للغرب دراسة خصبة ضخمة كشفت فيها بانصاف عن دور المسلمين والعـــرب فى مجال البحث العلمى ـ وهونكه باحثة المانية درست فى جامعة برلين الفلسفة والتـــاريخ ونفسيات الشعوب وعن طريق اطروحة الدكتـــوراه التى تقدمت بهـــا وموضعها (الاثر العربى فى الشعر الغنائى الاوربى) تفتح الطريق أمامها الى معرفة قدر العرب والمسلمين وفضلهم على الحضارة . ومن أجل استكمال البحث قامت (هونكه) برحلة الى العالم الاسلامى وتعرفت على ثقافة أهله، وتقول أن الذى دفعها انصاف الفكر الاسلامى انها لم تجد فى المكتبة الاوربية كتابا شاملا يوضح هذا القطاع من الفكر ويبرز هذه الحقائق التاريخيـــة وتقول : لو أنك اطلعت يوما على كتب التاريخ التى يتداولها تلامذة المدارس فى أوربا لوجدت أن ذكر العرب كشعب وحضارة وثقافة يرد على انها علاقة عداء وحروب فقط ، أضف الى ذلك تلك الترسبات المتراكمة على عقـول الاوربيين والناتجة عن صراع قديم ومن خرافات خرقاء ، اضف الى ذلك أثر الدعاية السيئة ضد العرب وأثر التصورات الغربية عن الشرق بلياليه وحريمه وأساطيره والجهل الذى لدى الاوربيين بحقيقة الماضى والحاضر ، لاجل هذا كله آثرت ان اطلع ابناء أمتى على هذه الحقائق .

وتقول الدكتورة هونكة

يبـــدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب لكى يتحـــدث بكل صـــدق واخلاص عن العرب ، هذا الشعب الذى آثر بكل عمق فى مجرى الأحداث العالمية والذى يدين له الغرب والانسانية جمعاء بالشىء الكثير ، ولعل التعصب هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات العرب العظيمة .. وطمس مساهمتهم الأساسية فى الحضارة الأوروبية ، وان طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العـــربى منذ ظهور الاســـلام الى يومنا الحاضر لتبين كيف يمكن للعواطف والأهواء أن تملى التاريخ بصورة معينة .. أى بصورة مشوهة وأبعد ما تكون عن الصدق .. ولكن هذه النظرة التى كانت سائدة فى العصر الوسيط لم يعد يمكن القبول بها فى الوقت الراهن .

وحين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى وجهالتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون ، لشد ما يغبن حقهم من يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم الى العالم العربى بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير ، والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

***

ان قواميس اللغات الأوروبية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها ، وقد أخذ الغرب عن العرب فكرة البريد كما نقلوا كثيرا من فنون الزراعة ، وقد أخذ الغرب الأرقام الهندية فى أواخر القرن الحـادى عشر ، وكانت معروفة عند الهنـود منذ القرن السادس بعد المسيح ، ويعود الفضل الأكبر فى تعريف الغرب على الأرقام العربية الى « الخوارزمى » الذى نقلت كتبه جميعا الى اللاتنية وكانت مرجعا هاما للعلماء الغربيين ولا يزال الغرب يعترف بفضل « الخوارزمى » هذا وما تزال كلمة « لوغاريتما » مشتقة من اسمه .

وكان العرب يعرفون النجـوم وحركاتها ويفهمونها أعظم من الاغريق والرومان ، ويسمونها بأسمائها ويجمعونها فى كوكبات تمثـل مشاهد من حياتهم اليومية . ولقد شيدوا مراقب أشهرها مراقب المأمون فى بغداد ودمشق والعزيز والحكيم فى القاهرة . والمرقب الذى بناه السلطان عضـد الدولة فى حديقة قصره فى بغداد .

ونفخ العرب فى العلوم الفلكية روحا جديدة وذلك بميلهم الى الجمع والترجمة وبه انتزعوا — من النسيان — ثروات القدماء العلمية وأعانتهم على ذلك مواهبهم المرموقة للرياضيات، وحماسهم لحل المسائل بواسطة الحساب، ولعل الساعة التى أهداها هارون الرشيد الى شارلمان عام ٨٠٧م تشكل برهانا

ساطعا على المقدرة الفنية التى توصل اليها العرب فى ذلك الحين ، وكان العرب يسعون الى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة علمية معينة ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة وحدة أو عشر مشاهدات ، بل يقومون بالمئات منها ، ولقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون من أدوات المشاهدة وبذلوا عناية أعظم فى استقصاء السماء بحيث توصلوا الى اكتشافات لا حصر لها . منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم بصورة متزايدة الدقة وتدقيق لوائح بطليموس — وتحسينها ووضع لوائح أخرى خاصة بهم ظل الغرب يستخدمها حتى أيام كوبر نيكوس . وأشــهرها لوائح الخوارزمى ولوائح ابن يونس والبتانى .

***

وقد توصل فلكى بغداد فى نهاية القرن العاشر الى أقصى مايمكن بلوغه دون عدسات أو مناظير ولنذكر من هؤلاء الفلكيين « الفرغانى » الذى كان سباقا الى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات فى الاتجاه المعاكس للحركة النهارية « وثابت بن قره » الذى حسب ارتفاع الشمس الظاهر وطول الســنة الشمسية و « البتــانى » الذى حقق منجــزات فلــكية عــديدة و « البيرونى » الذى صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس « وابن الهيثم » الذى اشتهر فى ميدان البصريات أكثر منه فى مجال الفلك ، فقد كان « ابن الهيثم » أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجــاه الأجسام المضيئة الى العين التى تــراها ، بل بواسطة جسمها الشفاف ووضع نظرية الظل وكان سباقا الى استخدام الغرفة المظلمة فى تجاربه وفى مجال الجبر وقف الاغريق والهند عند حد محدود ، ولكن العرب جمعوا بين حس الكميات الحسابية وحس الكميات الهندسية بحيث لم يخلقوا فروعا علمية جديدة فحسب بل طوروا بعض الفروع الأخرى الى درجة من النضج لم يبلغها الاغريق أو الهنود قط ، ولهذا كان العرب لا الاغريق أساتذة الرياضيات فى عصر النهضة ويكفى أن نذكر هنا مؤلفات الجبر لأبى كامل والبيرونى وابن سينا وعمر الخيام الذى رفع الجبر الى قمة لم يتمكن أحد من الارتقاء اليها حتى ديكارت الفرنسى فى القرن السابع عشر .

وكان العرب أول من استخدم الفاصلة للاشارة الى الكسور ، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستينى وقسموا الدائرة الى ١٦٠ درجة ووضعوا الحساب التفاضلى الذى أسسه ابن سينا .

وأخيرا فان نظريات « الفارابى » — أكبر المعلمين بعد أرسطو — فى الفنون الموسيقية قد قادته قاب قوسين أو أدنى من اللوغاريتم ، وان نظريته عن المقادير المتناهية فى الصغر مع نظرية ابن سينا وقد الهمت العلماء الغربيين الذين تعمقوا بعد عدة قرون فى هذه الميادين واستثمروها .

لقد كان النور الذى أحدثته الشرارات المنطلقة من العبقرية العربية فائقا للغاية .

ولعل الطب هو أهم مجالات التفوق العربى .

فى تلك الأيام كان منح البركة والتعاويذ والصلوات هى أساليب العلاج الرئيسية التى يطبقها أطباء الغرب فى سبيل تخليص البشر من أدوائهم الجسدية .

ولقد كان العرب يمارسون التلقيح ضد الجدرى حتى قبل الاسلام ويكفى أن يذكر المرء « الرازى » الذى كان أحد الأطباء فى كل الأزمان « وابن سينا » الطبيب الأكبر ، و « ابن النفيس » الذى اكتشف دوران الدم الصغير قبل وليم هارفى الانكليزى بأربعمائة عام و « عبد اللطيف البغدادى » الذى قال : مهما كان احترامنا لجالينوس عميقا فاننا نفضل أن نصدق عيوننا الخاصة .

***

وكان العرب مهرة فى الجراحة وخاصة فى أمراض العين كما كانوا أول من طبق طريقة التخدير العام فى العمليات الجراحية كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمادات الحارة بل لقد كانوا يطبقون طريقة المعالجة

بمضادات الحيوية ، وقد ترك العرب مؤلفات طبية تفوق مؤلفاتهم فى أى ميدان علمى آخر . وقد خدمت هذه المؤلفات فى تعليم أجيال عديدة من الأطباء الغربيين .

والعرب هم الذين نقلوا الى العالم الغربى طراز الحكم المركزى السائد حاليا فى سائر الدول الأوروبية كما علموه أنظمة جباية الأموال والجمارك وسائر الشئون المالية الأخرى .

ولقد نادى النبى العربى بالطموح الى المعرفة فى كل مكان وزمان لأن المعرفة تنير سبيل الايمان ، وهكذا لم ينصرم القرن الاسلامى الأول المكرس للفتوح ، حتى ازدهر العلم العربى مثل محيط من الزهور بينما كانت الكنيسة فى الغرب تخنق العلم الوثنى ، كان العرب يستولون على الغنيمة الفكرية الضرورية من أجل ثقافتهم من الاغريق ومن فارس ومن لدن الصينيين والهند على السواء

***

وكانت عملية انقاذ هائلة حيث حفظ العرب مؤلفات القدماء من الدمار لكنهم لم يخفوها تحت المكيال بل أحيوها حين ترجموها الى لغة القرآن الحية وهذا ما يشكل الجذر الثانى للازدهار الفكرى ، لأن كل مسلم يجب أن يكون فى مستطاعه قراءة القرآن وتلاوته باللغة العربية وبالتالى أن يتعلم هذه اللغة بحيث أصبحت « روائع العلم » المترجمة فى متناول سائر مواطنى الامبراطورية العربية . وحين كان الغربيون يتباهون بجهلهم القراءة والكتابة كان الشعب العربى بأسره يؤم المدارس ، ولا عجب بعد ذلك اذا ازدهرت الثقافة واذا عمد العرب بعدما استقوا من الينابيع المتوفرة من قبل الى تفجير ينابيعهم الخاصة ، وحين أخذ العرب هذه الأشياء جميعا عنهم فانهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب والا فان الاغريق هم وسطاء أيضا

والهنود كذلك ، فكل عصر يستولى على الميراث العلمى السابق له وبقدر ما يسقط هذا الميراث فى يد خلاقة فانها تعدل فى جوهره وتحوله وفق ناموسها الخـــاص .

ان لكل عبقرية طابعها الخاص وطريقتها الخاصـــة وان مآثر العرب الخالدة لتقوم فى تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجـربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الاغريق ، وان العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمى فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث وعندئذ أصبح الارتقاء الصـــبور من الخاص الى العام وأصبحت الطريقة الاستقرائية هى الطريقـــة العلمية الأساسية .

وان الفكر الغربى لم يستيقظ من ذلك الخدر الذى أثقل عليه طوال قرون بل طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكى يطير الا بعدما امتلك المعجزات العربية فى الميادين التقنينية والادارية ثم تبنى هذه المعجزات على المســـتوى الحضارى .

٧ — أما العلامة مسمر الذى كان رئيسا للبعثة المصرية فى فرنسا عام ١٨٨٠ فانه قد تعرض للرد على الاتهامات التى وجهها (أرنس رينان) للفكر الاسلامى فى محاضرة القاها فى جامعة السربون وردد فيها الكثير مما شملته كتب المبشرين وخصوم الاسلام فيتصدى له عالم من بنى جنسه باحث مقتدر له مكانته العلمية فعندما أورده ودحض ماذهب اليه من شبهات .
يقول العلامة مسمر :

الحق أن الاسلام جاء ليوفق بين فريق كبير من بنى آدم كان بعضهم يقاتل بعضا بسبب تخالفهم فى الأديان وليشر العلم والحكم فى أمم كانت قبل مجيئه تتخبط فى دياجير الجهل .

ولما كان كلامنا موجها لمن يعرف التاريخ فلنقتصر على الاشارة الى حالة العالم فى القرن السادس من الميلاد ولنقل ان الجاهلية كانت متسلطة عليه ، وان الأفراد القليلين من الأذكياء فى تلك الأثناء كانوا منهمكين فى المجادلات الدينية . واذا كانت قد نشـــأت للنصوص الغامضـــة فى الدين

المسيحى تفسيرات لا يقبلها العقل وكان المتوحشـــون من قبائل الجوشين والهونيين وغيرهم يجهزون على بقية ما كان أسسه الرومانيون من مدينة ، فلا جرم كان العالم فى هذا الوقت ، أى وقت ظهور محمد فى حاجة ماسة لمن ينقذه من الويلات التى كان فيها ، ومن شط فى هذا الموطن وزعم أن محمدا كان مدعيا للنبوة فقد زاد هذه المسألة تعقيدا بدون أن يحلها .

وقال :

ان « التوحيد » الذى هو أساس الدين الاسلامى كان السبب الأول فى نجاح دعوة محمد ، وقد أصابه بعض المؤلفين فى قوله « ان اعلان محمد هذا التوحيد فى عصر ملت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به ، فقد استثار العقول . حتى أنه ماكاد يفوه بالدعوة الى توحيـد الله حتى استنار العالم بدعوته .

وفضل الدين الاسلامى يظهر مما جاء على لسان محمـد صلى الله عليه وسلم وهو يسقط الأصنام التى كانت حول الكعبة . وهو : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » ، وقوله : « لا فضـل لعربى لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

فهل يجوز لنا أن نجهل « حقيقة الاسلام » فى عهـدنا هذا ، عهـد المناقشات الحرة ، والآراء المستقلة . فما علم نابليون بمعنى الاسلام حتى قال : النصرانية وعيد والاسلام وعد : وما أذكى الكاتب (مراشى) الذى كان موجودا منذ قرنين حين مدح الاسلام بقوله : ان الدين المحمدى حفظ ما كان معقولا من الدين المسيحى وزاد عليه كل ما هو موافق لقانون الطبيعة ، الا أن هذا الكاتب لم يمكنه أن يعلل انتشار العلوم الذى صحب الاسلام منذ ظهوره ، مع أن هذه العلل ماثلة فى القرآن والحديث .

فاذا قيل أن ما فى القرآن والحديث يوجد عند المسلمين قولا لا فعلا ، قلنا انك لو سألت أى سائح عن هذا الأمر لأجابك بأنه ما من مسجد قديم

الا وفيه مكتب للتعليم وكان من عوائدهم ان يحتفلوا أول دخول الطفل الى المكتب فيولموا الولائم ، ومن يتأمل آى القرآن يجد أن أســاس الاسلام « التوحيد » وقطبيه التآخى وتحسين شئون العالم تدريجيا بواسطة العلم فهذه هى الأسباب الحقيقية لظهور الاسلام .

ويعرض الباحث للعلاقة الاكيدة بين الاسلام والعلم فيقول : ان صـــلة الاسلام بالعلم صلة جذرية واذا وقع العداء بين العلم وبين بعض الاديان فان الأمر على العكس من ذلك بالنسبة للاسلام ؛ الذى تقوم بينه وبين العلم رابطة أكيدة ، وعرض الباحث لما يتردد من اتهام الاسلام بالضعف نتيجة لفتـــرة التخلف التى مرت بالمسلمين واعلن أن هذا القول باطل من اساسه وقال : ان الدين الذى تحتفى به هذه الملايين العديدة من النفوس وتدافع عنه بأموالها وأرواحها لايمكن أن يكون على شفا الزوال ، بل الحق أنه فى طريق القـــوة والعلاء .

الباب الخامس

الإسلام والحضارة

كثيرون من كتاب الغرب أولئك الذين تناولوا موقف الاســـلام من الحضارة من ناحية وأثر الاسلام فى بناء الحضارة الاسلامية ، وقد اخترنا كاتبين عامين فى هذا الصدد هما : الدكتور لويجى رينالدى والاستاذ رينيه ميليه .

أما الدكتور لويجى رينالدى فانه يتحدث عن أثر مدنية الاســـلام فى الغرب فيقول :

بينما كان نجم المدنية الرومانية التى قامت على أطلال المدنيات القديمة قد أخذ فى الأفول ، وكانت أوربا قد عادت وسقطت فى ظلمات الجهل، كان المسلمون والعرب قد اخذوا يشرفون برؤسهم من ســواحل البحر الأبيض المتوسط ولم يلبثوا ان قامت منهم تلك البعثة الخطيرة التى ايقظت الأمم الأوربية النائمة وان ظهور المسلمين والعرب فى الغرب لحدث جليل يستحق ان يذكر منا بالشكر والامتنان لأن مدينة هذا الشعب العظيم كان لها تأثيرا وأى تأثير فى حياة الشعوب اللادينية .

***

كان العالم اليونانى واخوه الرومانى قد سقطا فى كل مكان عندما اخرج « محمد العظيم » خلفاءه من أبناء الصحراء ونشرهم فى أنحاء العالم ، حتى شيدوا ذلك الملك الكبير الباهر الذى كان يمتد من بلاد الهند الى بلاد الأندلس ، ومن بحر الخرز حتى المحيط الأطلسى ، وقد كانت سياستهم مع الشعوب المختلفة هى سياسة التقرب والتحبب ، وذلك باحترام دياناتهم واعطائهم كامل الحرية فى اقامة شعائرهم وقوانينهم وأنظمتهم وتركهم لهم حريتهم الشخصية .

***

وقد أشــار المؤرخ الايطالى « امارى » فى مؤلفه « المسلمون فى صقلية » : الى ان الرعايا كانوا يعيشون فى راحة وسرور تحت حكم أمراء المسلمين وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة اخوانهم الايطاليين الذين كانوا

يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرغة وبفضلهم تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ، وما تزال حتى الآن براءات ملوك النـورمان مكتوبة باللغات العربية واليونانية ، كذلك كانت « اللغة العربية » احدى اللغات التى تضرب على نفوذهم وعليها شارتا الاسلام والمسيحية ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كان يوضع عليها أيضا نص قاعدة العقيدة الاسلامية بالعربية فقط وهى : « لا اله الا الله محمد رسول الله » كذلك استمر الأمراء الذين خلفوا النورمانيين فى حكم البلاد على ضرب نقودهم باللغة العربية .

ولقد كان ملكهم فردريك الثانى كثير الاهتمام باللغة العربية وآدابهـا حتى ضرب فيها بسهم وافر ولا يزال بين بعض أهل الجزيرة حتى الآن بعض عادات تشبه عادات اليمن ، وقد ترك المسلمون عددا عظيما من كلماتهم فى اللغتين الصقلية والايطالية ولا تزال كذلك عدة أماكن بصقلية تحمل أسماءها العربية كالقلاع مثلا قلعة النساء وقلاع أخرى .. وكذلك كلمة « مرسى » مثل « مرسى على » وغيرها .

***

ولا تنسى أن العرب والمسلمين تركوا بعض الآثار فى ايطاليا خارج صقلية حيث وضعوا رحالهم فترة من الزمن ، ولكن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى لغتنا الايطاليـة التى تفوق الحصر ، قد دخلت فى اللغـة لا بطريق العرب ولكن بطريق المدنية التى كثيرا ما تؤلف وتواخى بين مظاهر الحياة المختلفة .

ان وجود هذه اللغات فى اللغة الايطالية دليل على ما كان للمدنية الاسلامية العربية من نفوذ عظيم فى العالم الغربى ، وبما كان من العلاقات التجـارية بين بلادنا وبين المسـلمين فى المشرق وفى افريقيـا الشرقية وصقلية .

ويستطرد لويجى رينالدى فيقول :

وقد احتاج العلم الغربى حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية الى نفوذ اسلامى جديد ، يتمثل ذلك اللقاء فى « التهذيب العلمى والمدنية العربية » فان شعب الصـحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سـقوط المدينتين الرومانية

واليونانية واندثار معالمها ، وبذلك قام المسلمون والعرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى باعادة نور الحضارة والمدنية الذى كان قد انطفأ فى جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية ، وقد أشار (بريس دافن) فى كتابه عن (الفن العربى) : « انه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربى وذلك أولا لكثرة فطاحل الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم وثانيا لما احدثته فنون هذا الشعب وعلومه من التقدم العجيب فى العالم مدة قرون عديدة .

***

وفى أيام سقوطنا لجأ العلم الى ظل الأديرة، وكانت مدنية العرب فى القرنين التاسع والعاشر فى الأندلس وصقلية قدبلغت أوج الكمال فلما شعرنا بالحاجة الى دفع هذا الجهل الذى كان يثقل كاهلنا تقدمنا الى المسلمين ومددنا اليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين فى العالم . وقرب العلم من اسبانيا وصقلية المسلمين الى أوربا وقد تلقى جلبرت « سلفستر الثانى » دروسه كلها فى مدارس العرب بالأندلس ولما رجع الى أوربا وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنيه ظهر لهم ما نشره بينهم غريبا جدا وبينما كان الغرب فى صراع مع العالم الاسلامى والحملات الصليبية تذهب بعددها وعددها لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدى العرب فى الشرق ، كان الغرب ينقل عن المسلمين العلم والعرفان .

ولقد كانت عادة العرب اذا دخلوا مدينة أن يؤسسوا فيها مسجدا ومدرسة ، وما كان أعظم جامعاتهم فى بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة واشبلية وصقلية ، وكانت مدرسة القاهرة الجامعة المسماة (بيت زويلة) من أعظم جامعات العلم ومكانها الآن مسجد المؤيد ، كذلك كان فى الأندلس وحدها سبعون مكتبة ، وكان فى مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة ألف مجلد أيام الخليفة الحكم الثانى الذى كان يرسل رجاله فى جميع بلاد الشرق للبحث والتنقيب ، وكان يجزل العطاء لهم كلما ظفروا بكتاب نافع ، وقد

أسس الحكم فى قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة كان يتعلم فيها أولاد الفقراء مجانا ، حتى لقد كان كل واحد فى الأندلس — كما روى دوزى — يعرف القراءة والكتابة بينما كان الجميع فى أوربا حتى النبلاء لا يفكرون فى التعليم ، وكنت ترى فى شخص الأمير أو الخليفة المسلم صورة الكاتب والشاعر والعالم وكانت قصورهم محط رجال العلماء والفلاسفة ، ولا يجد الانسان صعوبة فى التعرف الى العلاقة بين الشعر العربى الأندلسى والشعر البروفانسى لأن الشعر الاسبانى والبروفانسى ينتسبان الى الشعر العربى ، ولقد أثبت المؤرخ « مارى » أن صقلية مدينة للعرب وكذلك (ايطاليا) مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطنى ، وان ذلك كان سببا فى نهوض الشعر الايطالى ولم يساعد العرب فقط على أنها من الشعر الصقلى والايطالى بل أنهم أمدوا قصصنا بشكلها ومادتها . فانك لتجد كتابهم « كليلة ودمنة » قد ترجم الى كثير من اللغات وهو أصل كتاب الطراز الأول لمحادثات الحيوان لمؤلفه فيرنسكو وكذلك كتاب الفلسفة الأدبية لمؤلفه لدونى .

***

وقد أخذ من الأدب العربى أمثال بوكاشيو ويوجيو وباندينو وبانلو ولافونتين ووضعوه فى كتبهم .

ومن مراجعة رسالة للشاعر بترارك الى صديقه الطبيب (جيوفانى دابادفا) يمكننا أن نفهم الى أى حد وصل النفوذ العربى فى ايطاليا فان الشاعر الايطالى سجل الفخر الذى يرفع به العلماء والحكماء الايطاليين الى نجوم السماء علماء العرب وشعرائهم وفلاسفتهم ورياضييهم وخطبائهم .

وقد أعد (دانتى الليجيرى) مكانا مشرفا لفيلسوف العرب (ابن رشد) اذ وضعه فى قصيدته السامية (الكوميديا الالهية) الى جانب كبار العلماء والحكماء ، ولا ننسى أن ابن رشد هذا هو مبتدع مذهب (الفكر الحر) وهو الذى كان يعشق الفلسفة ويهيم بالعلم ويدين بهما وكان يعلمهما لتلاميذه بشغف وكان بين فلاسفة العرب « الكندى » وقد وضعت العلامة (كارتادو) بين الاثنى عشر فيلسوفا العظماء الذين ظهروا فى العالم وكتاب

(القانون) لابن سينا كان يدرس فى جميع الجامعات سواء فى الشرق أو الغرب وخصوصا ايطاليا فانه كان يدرس فى جامعة سالرنو (١) أعظم مدرسة للطب فى أوربا .

***

وكان للمسلمين والعرب الفضل فى علم النبات وعلم الكيمياء وعلم الفلك والهندسة وطريقة الحساب العربية .

وفى اللغات العلمية فى جميع مدننا الايطالية لاتزال فى معاجم اللغة كلمات كثيرة على أصلها العربى كالطير والزعفران والزنجبيل والسكر والبن والقهوة يرد الينا من أمريكا ولكننا تفضل عليه البن العربى .

وكلمة « موسلين » اسم نسيج عربى كان يصنع فى مدينة الموصل العربية وكذلك كلمة (ركامو) ومعناها التطريز هى كلمة عربية ولم يقتصروا على اجادة الفنون الجميلة بل عنوا بها عناية كبيرة ونبغوا فيها نبوغا عظيما وقد أتقنوا الموسيقى والنقش والحفر وهندسة المبانى .

وقد يحزننى والله ويحزن غيرى ممن ينصفون أن يكون بيننا نحن الغربيون من ينكرون فضل العرب والمسلمين على الحضارة ، وهذا بلاشك افتراء ونكران للجميل ، وما زال العربى يحتفظ بصفاته العجيبة وذكائه النادر ، ونحن لم نصل الى ماوصلنا اليه من المعرفة الا بفضلهم ولا شك أنهم سينهضون لاستثمار هذه المدنية التى كانوا لها يوما موحدين وعلى اعلاء شأنها عاملين .

ويعرض الأستاذ رينيه ميليه لموقف الاسلام من الحضارة فيقول :

لقد اتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة واعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار . لقد جاءوا بمبدأ جديد . مبدأ يتفرغ عن الدين نفسه ، وهو مبدأ « التأمل والبحث » .

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالاسلام هو درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره فلو عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش ، ان الذي ساعد على الانتشار ان الاسلام دين جاء بخلاف ما كان موجودا ، فقد اعتاض عن تعدد درجات الادارة بسلطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد في الأمور ولم يقر وساطة بين الله والشعب ولم يسن نظام الصوامع ، وقضى على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقد قرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معا وبالجملة فقد أتى الاسلام بنظام ملائم لحاجات الناس وهذا سر غلبته ، ثم ان الاسلام أرجع الدين الى حالته الطبيعية ولم يأت بشيء من العقائد الفلسفية بل قال بكل وضوح لا اله الا الله وبذلك خلا الاسلام من الاعتقاد الذي قسم الدول

***

أذكر أني أيام كنت أدرس تاريخ الاسلام كان الأساتذة يقررون سرعة انتشاره دون ايقافنا على أسبابه . وغاية ماكانوا يذكرون هو أن طبيعة العرب طبيعة حربية وان خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها ، مع أن الحقيقة أن الفتوحات العربية كانت على البغال .

الا ان العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد ، ثم أنهم فوق ذلك أتوا مشبعين بروح التسامح وذلك سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك اسبانيا وأفريقيا ونصف اسبانيا .

ويمضي الكاتب فيقول :

أتى المسلمون بعقيدة سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فارتقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه معاصروهم ، وأتى ليبين انه كانت على أبصار أهل القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من ادراك الأشياء على حقائقها .

وقد جاء المسلمون فى الوقت نفسه بمبدأ فى البحث جديد ، مبدأ منبثق عن الدين نفسه هو مبدأ « التـأمل والبحث » مالوا الى الاشـتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس الكيميـاء وقد وجـد فيهم كبار الأطباء ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبع فيهم الشـعراء المجيدون الذين قالوا شعرا قريبا من العقول يغذيها ويمتعها . وأنه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة . ولا أطيل القول فى الشيء المشهور من أن « الحضارة العربية الاسلامية » بلغت شأوا عظيما فى بغداد وقرطبة ، وأولما يتبادر الى ذهن الباحث النزيه هو أن « الاسلام » أعطى أشهى ثمرة لما سرت اليه المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

انظروا الى قرطبة تلك المدينة التى سقطت الآن فى حضيض الهوان ، انظروا اليها فى عهد الدولة الاسلامية عامرة آهلة يبلغ عدد سكانها زهاء خمسمائة ألف نسمة وعدد مساجدها ثلاثة آلاف ، وعدد منازلها مائة وثلاثة عشر ألفا عدا (ثلاثمائة من الحمامات العامة) .. واذا اردتم ان تقفوا على اخلاق أمراء المسلمين فى تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقيهم فاليكم صورة ما جاء فى وصية عبد الرحمن الأول أحد خلفاء قرطبة وقد اخترتها عفوا من بين المستندات الكثيرة التى تتعلق بتاريخ الاسلام فى اسبانيا .

تقول الوصية :

« ان الملك بيد الله يأتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء » فعليك بتقوى الله وطاعته واعمل خيرا للناس كافة ، خصوصا أولئك الذين وكل الله شـئونهم اليك . واعدل فى حكمك وقضائك بين الفقراء والأغنياء ولا تول أمور الناس الا من عرفت فيهم الحكمة والخبرة ، عامل جندك بالشدة واللين معا ليكونوا حمـاة الدولة لا عونا للظلمة من الحـكام ، وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بمعونتك لأنهم مورد حياتنـا واحـرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك » .

ويمضى الكاتب مستعرضا أثر الحضارة الاسلامية فيقول :

لبثت هذه المدنية التى أتت بالمدهشات والتى لا يزال الناس فى حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمانمائة سنة ، فاذا أضفنا الى ذلك المائتين أو الثلاثمائة التى اتسعت فيها دولة الاتراك وبلغت شأوا من العظمة الحربية علمنا أن الدولة الاسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريبا وهى مدة تناهز عمر الدولتين « اليونانية والرومانية » .

لقد لزم مسلمو الأندلس التسامح مع غيرهم ومودتهم حتى فى الزمن الذى اضمحلت فيه الدولة فاذ اتيح لأحدكم أن يتجول فى أنحاء اسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك وعلى بقايا ما شيده ليستخلص من دراسة تلك الآثار أن الأندلس كانت بلاد غنى ورفاهية فى هذ االعهد كانت بلاد « غرناطة » زهرة أوربا وكان كل من يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية المدنية يذهبون الى تلك البلاد فارين من بلاد أوربا التى كان يحكمها الأمراء وهى مهد القسوة والظلم حيث كان الأمراء يعــاقبون من يأسرونهــم فى الحروب بالقائهم الى الكلاب المفترسة لتمزق أجسادهم .

هذا وان كانت هناك حقيقة يجب أن نبينها فهى أنه فى هذه الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمســيحيون منذ انتهاء الحرب الصليبية الى فتــح القسطنطينية كان « الاسلام » هو العنصر المؤثر والعالم الأوربى هو العنصر المتأثر ، ومن جهة العلوم والآداب فان أوربا لبثت ثلاثمائة عام سنة تقتبسها من الاسلام . وكانت المدنية الغربية خلال ذلك تجنى ثمارها اليانعة .

ولقد كان استيلاء الغرب على غرناطة عملا وحشيا بربريا لم أعهد فى التاريخ أسوأ منه ، فقد كانت غرناطة عروس اسبانيا وزينتها ، ولقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش التى جرى

هدمها ، هذه الحمامات التى كان المسلمون يتنظفون بها ، لقد كانت أوربا فى علاقتها مع المسلمين والاسلام فظة غليظة القلب ، ان آثار التعصب لتبدو واضحة فى اعطاء العهود للعرب بعد سقوط قرطبة ثم خلف العرب لهذه العهود فى محاولة للقضاء على الحضارة الاسلامية .

لقد عجز الأوربيون أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم ، وأن يقفوا على كنه عقول ليست من عقول اخوانهم فى الجنس ، وقد أدركوا اليوم ضلال خطتهم الأولى ، واسرعوا يلتمسون خطة جديدة غايتها الوصول الى المعرفة الصادقة .

ويهمنى هنا أننا لا نستطيع أن نحكم على تلك الأمة بالسقوط ، لأن الأمة التى أمكنها ان تنهض فى وقت ما ، يمكنها أن تعيد نهضتها فى المستقبل ، لقد أفل نجم المدنية الاسلامية بعد ما أثمرت واينعت فترة طويلة من الزمن ويكفى هذه المدنية نفحة من نسيم الحياة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها .

ان تلك الصبغة العامة اللينة التى اتصفت بها مبادىء الاسلام هى التى جعلته يقبل بضروب المدنية ولا ينافيها ، بل يقابلها بصدر رحب .

***

بقيت مسألة جديرة بان نبحث عنها وهى ما تنمو فيه من نهضة المسلمين ، ان علينا أن لاننظر بعين الكره والسخط الى يقظة المسلمين فان من شأن هذه الحياة الجديدة التى بدأت تسرى روحها فى العالم الاسلامى أن تقرب من العالمين والمدنيتين .

***

ويقول البعض : اذا كان المسلمون اليوم يسيرون فى طريق المدنية الغربية سيرا حثيثا فلماذا نتصور أن تكون هنالك مدنيتان (مدنية غربيةوأخرى

اسلامية) ولماذا لاتفنى المدنية الاسلامية فى جسم المدنية الغربية ، مادامالعلم هو أساس المدنية ، على أنى لا أقبل هذا الرأى ذلك لأن المدنية الاسلامية مدنية جامعة بين المادة والروح والعلم والدين ولا تفصل أحدهما عن الآخر ، والعلم له دائرة محدودة ولا يمكن للعلم أنيمحو سلطان الأديان على النفوس وعلى ذلك فلا أرى حدا لبقاء « الاسلام » ذلك الدين الذى أتى بأحسن العقائد ملاءمة للفطرة والذى سعد حظه بأن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم لم تتلبد بالغيوم فظل نوره ساريا فى تلك البلاد الواسعة الأطراف ولم تستطع الأحداث أن تطفى ذلك النور الربانى الساطع .

ان مبدأ التفريق بين عالم المادة وما وراء المادة قد تبينه المسلمون فجعلهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها مايناقض دينهم المشهور بالتسامح.

الباب السادس

الدعوة الى الاسلام وانتشاره

مازال قصة انتشار الاسلام بهذه الصورة القوية البارعة موضع التساؤل والعجب من كتاب الغرب الذين يدهشون لقدرة الاسلام على النفاذ الى القلوب على هذا النحو السريع ، وقد تناول هذا الموضوع كثير من الكتاب الغربيين ، وحاول بعضهم – ان جهلا أو تعصبا – ان يدلى بآراء غير سليمة منطقيا أو تاريخيا .

غير أن هناك بعض المنصفين ما لبثوا ان حرروا هذه القصة واعلنوا منها آراء منصفة قريبة الى الحقيقة وفى مقدمة هؤلاء أدوارد مونييه وتوماس أرنولد .

أما سير توماس أرنولد فهو من خيرة كتاب الغرب المنصفين ، وهو ايرلندى الاصل تعلم فى جامعة كمبردج وعين مدرسا فى كلية عليكرة الاسلامية فى الهند عام ١٨٨٨ وهناك اتصل بالمسلمين ودرس شريعتهم وعقيدتهم واستطاع ان ينصف الحقائق الاسلامية فى مؤلفه الضخم الذى أطلق عليه الدعوة الى الاسلام فضلا عن مؤلفاته الاخرى ١ – تعاليم الاسلام ، ٢ – المعتزلة ٣ – الخلافة

ومن تلاميذه العلامة شبلى النعمانى المفكر الاسلامى الكبير الذى انشأ دار العلوم فى لكنو والفيلسوف الاسلامى الذائع الصيت : محمد اقبال المتوفى عام ١٩٣٠

وقد عرض توماس أرنولد الى انتشار الاسلام وكيف كان لقوة الاسلام الذاتية اثرها البالغ – لا الفتح ولا قيام الدولة الاسلامية وحدها – فى نشر الاسلام وهذا ملخص رأيه :

أعلن تعاليم الاسلام لأول مرة على أهل بلاد العرب « نبى » انضوت تحت لوائه قبائلها المتفرقة فاضحت شعبا واحدا ثم دبت فيهم الروح القومية الجديدة فملأتهم حياة ونشاطا ثم سرت فى جيوشهم حماسة وغير فملأتهم يأسا وقوة لا مر فيها لهما وبهذه العدة خرج المسلمون الى القارات الثلاث فاستولوا أول الأمر على سوريا وفلسطين ، ومصر وشمال افريقيا وبلاد فارس ، ثم انطلقوا بعد هذا غربا الى اسبانيا وشرقا الى ماوراء أندونيسيا ، ولم تمض على وفاة النبى مائة عام حتى وجد المسلمون أنفسهم سادة امبراطورية أوسع رقعة من امبراطورية روما فى أوج قوتها .

***

ورغم أن هذه الامبراطورية قد انقسمت من بعد فان فتوح الاسلام الروحية قد بقيت لا تحول دونها الحوائل ، حدث هذا برغم اغارة « المغول »

على بغداد ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م وقيام حكام الأندلس وعلى رأسهم فرديناند صاحب ليون وقشتالة باخراج المسـلمين من قرطبة عام ١٣٣٦ م كان ذلك يجرى والمسلمون يضعون أقدامهم فى أرض جديدة يدخلون أهلها فى دين الله ، تلك هى جزيرة سومطرة ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق فى جزائر أرخبيل بالملايو ، وهكذا قام الاسـلام فى هـذه الفترة بطائفة من أعظم غزواته الروحية ، وفى التاريخ الاسلامى طرفان حرجان « الأول » حين دهمهم الترك السلاجقة فى القرن الحادى عشر والثانى حين جاء المغول فى القرن الثالث عشر ورغم أن الغزاة أخضعوا المسلمين لسلطانهم السياسى فى كلتا الحالتين ، فانهم خضعوا لسلطان « الاسـلام » ورضـوه دينـا لأنفسهم وفى مرة أخرى نجد المبشرين المسلمين فى غير اعتماد على سلطان الحكم وصولة الجيش يحملون الاسلام الى أواسط أفريقيا والصين وجزائر الهند الشرقية ، واليوم يمتد نطاق الاسلام من مراكش الى زنجبـار ، ومن سيراليون الى سيبيريا والصين . ومن البوسنة الى غيانة الجديدة ، ولو أننا تركنا البلاد التى يسكنها عدد كبير من المسلمين كالصين وروسيا ، وجاوزنا حدودهما الى البلاد التى لم تؤمن بالاسلام لوجدنا بهـا بعض الجمـاعات الاسلامية القليلة العدد المحدودة الكيان ، تشهد على قيام الاسلام ، مثل ذلك لتوانيا : وقد حمل تجار الهنود الاسلام معهم الى جزر الهند الغربية وغيانا البريطانية والهولندية ، وأخيرا نجد للاسلام أنصارا فى انجلترا وشـمال أمريكا واستراليا واليابان .

***

يرجع انتشار « الاسلام » فى تلك المساحات الواسعة على ظهر الأرض الى أسباب كثيرة اجتماعية وسياسية ودينية — ولكن أهم العوامل التى أحدثت هذه النتيجة المثيرة للاعجاب فى جهود المسلمين المتتابعة ، هؤلاء الذين اقتدوا بالنبى صلى الله عليه وسلم نفسه فجـاهدوا فى سـبيل ادخال الناس فى دين الله ولم يكن واجب « الدعوة الى الاسلام » فكرة متأخرة بل كان أمرا محتوما على المؤمنين منذ فجر الدعوة .

ومهما تكن العوامل التى نجمت فهناك حاجة المسلمين الى طبقةخاصة تختص بنشر العقيدة ، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها فى ذلك الشعور الناشىء عن المسئولية التى ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد ولما لم يكن هناك واسطة بين المسلمين وربهم كانت مسئولية خلاص الشخص ملقاة على كاهله وحده وكان المسلم أكثر تشددا واهتماما فى أداء واجباته الدينية وأشـد تحملا للمتاعب فى سبيل الله تعلم مبادىء دينه ومشاعره ، ومهما ردد الباحثون القول بأن كل مسلم داعية الى دينه ، ويبقى هذا القول صادقا . ومن كل أصحاب الصناعات والحرف نجد أولئك الذين قاموا بأعمـال ابتغاء نشر دينهم .

ومما يثير اهتمامنا ان نشر الاسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم بل لقد قام النساء المسلمات أيضا بنصيبهن ، فيرجع الفضل فى اسلام كثير من أمراء المغو لالى تأثير زوجة مسلمة .

وحتى المسلم الأسير يغتنم الفرص فى المناسبات لدعوة أسرته أو اخوانه الى دينه فقد تسرب الاسلام الى أوربا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم سبق أسيرا وجىء به الى بلاد « بتشنج » بين الدانوب الأعلى ونهر الدون ، وقد بسط بين يدى كثير منهم تعاليم الاسلام فاعتنقوه فى اخلاص ، ولم يمض وقت طويل حتى دخـل شعب البشنج دين التوحيـد وفى عهد الامبراطور جهانجيز ١٦٢٨ م كان هنـاك عالم سنى من علمـاء التوحيد يدعى الى « أحمد مجدد » تميز بقدرته على مجادلة بعض الفرق غير المسلمة فى عقائدهم فاستطاعوا ادخاله السـجن بتهمة تافهة ، وفى خـلال السنتين اللتين قضاهما فى الحبس أدخل فى الاسلام عدة مئات من عبدة الأوثان ، ولما رفضت الحكومة البريطانية بنفى أحد مولوية الهنود الىجزائر « اندمان » نفيا مؤبدا هذا المولوى أدخل فى الاسلام قبل وفاته كثير ممن حكم عليهم وفى أفريقيا الوسطى حدث مثل هذا .

واذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة الى حد أنهم كانوا على استعداد للتحدث عنها فى مناسبة وغير مناسبة فقد كان فى مقدمة هذه الأسباب :

« بساطة العقيدة الاسلامية » : لا اله الا الله محمد رسول الله ، وكل ما يطلب من الذى يدخل فى الاسلام قبول هاتين الشهادتين . ان هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للايمان ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية ، كان من الممكن أن يشرحها أى فرد .

فاذا قبل الذى يدخل الاسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها . لم يكن به عندئذ من ان يتعلم فرائض الاسلام الخمس ١ — الشهادتان ٢ — الصلاة ٣ — الزكاة ٤ — صوم رمضان ٥ — الحج الى مكة .

وفى الحج نجد عملا ساميا ، نرى زنجى ساحل افريقيا الغربى يلتقى بالصينى من أقصى المشرق . ويتعرف التركى على أخيه المسلم من أهل جزائر الملايو فى عطف وحنان ويجتمعون حول الكعبة ، هذه التى يولون وجوههم شطرها فى كل ساعة من ساعات عباداتهم الخاصة فى أوطانهم النائية ولم تستطع أى محاولة يقوم بها عباقرة أى دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع فى عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة واخوتهم التى ارتبطت بروابط الدين .

والى جانب نظام الحج نجد « نظام ايتاء الزكاة » فرضا آخر يذكر المسلم دائما بأن المؤمنين اخوة ، وهى نظرة دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش فى المجتمع الاسلامى .

كذلك نجد ان أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء فى جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم ، وقد أحسن

مونتسيكو فى قوله « ان المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأى دين آخر أقل احتفالا » . ان دين المسلم يتمثل دائما فى مخيلته وفى الصلوات اليومية وقد استطاع « رينان » ان يقول : « ما دخلت مسجدا قط دون أن تهزنى عاطفة حادة » ومن اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم فى صلاته وسجداته الكثيرة وعبادته للاله الذى لا يراه ، فى سكينة واستغراق ، قد تؤثر فى الافريقى الوثنى ، الذى وهب ادراكا قويا للقوى الخفية ، وان معارف الاسلام التى عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب أحيانا فردا يدخل فى الاسلام كان من الممكن أن ينصرف عنه .

ولا حاجة الى القول بأن صيام « شهر رمضان » جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بان الاسلام نظام دينى يجذب الناس عن طريق مراودتهم فى لذاتهم الشخصية .

ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية دون أن يثقلوا بها كواهلهم أو تجعلهم مغمورين فى الحياة فنجد أركان العقيدة الاسلامية تلقى دون انقطاع تغييرا ظاهرا فى حياة المؤمن ، ومن ثم نجد انها بعد أن أصبحت متشابكة فى نظام حياته اليومى تجعل المسلم الفرد اماما ومعلما لعقيدته اكثر مما هو الحال فى معظم الديانات الأخرى .

ولما كانت عقيدة مصوغة فى مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة ، كانت لا تتطلب الذكاء الا قليلا ، وأن تحدد هذه العبادات وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يختلج فى نفسه أمر الشك فيما هو مكلف بأدائه ، فاذا أدى هذه الواجبات اطمأن وجدانه الى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع وقد نجد فى هذه الوحدة بين النظامين العقلى والطقسى فى هذا الدين سر السيطرة التى احدثها الاسلام على عقول الناس .

ومن الأمور التى ساعدت على نجاح الدعوة الى الاسلام هى أن هذه الدعوة كانت الى حد كبير فى أيدى التجار خاصة فى أفريقيا وبلاد أخرى

غير متمدنة ، حيث نرى التاجر غير موضع الشك والريبة ، على حين نـرى خبرته بالناس والأخلاق وحنكته التجارية تنيلانه قبولا حسـنا ، فالمواطن هناك لا يشك فى نواياه ، ولا يظن انه قد احتمل هذه الأسفار الطوال ليدعوه الى دين ، ولما كانت نظرية العقيدة الاسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى فقد كان ذلك أقوى منفذا الى القلوب وقد ظل أصحاب الأديان الأخرى ينعمون بدرجة من التسامح فى ظل الحكم الاسلامى لم نكن نجد له مثيلا فى أوربا حتى فى عصور حديثة جدا .

وان التحويل عن طريق الاكراه الى الاسلام محرما طبقا لتعاليم القرآن « لا اكراه فى الدين » وقوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وان مجرد وجود كثير من الفرق والجماعات الدينية المختلفة التى ظلت قرونا فى ظل الحكم الاسلامى لدليل ثابت على ذلك التسـامح كما يدل على ان الاضطهادات التى كانوا يدعون الى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين انما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة واقليمية ، أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب .

وان ما حـدث من التعسف فى بعض المواقف لم يكن بموافقة الشرع الاسلامى فى شىء وقد ورد عديد من الآيات القرآنية التى تنهى عن الاكراه فى الدين ، وتوصى باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة وقد أعلن كبير وزراء صلاح الدين « القاضى الفاضل » عبد الرحيم بن على :

« أن رجلا قد ارغم على الدخول فى الاسلام لا يصح شرعا ان يعد مسلما » .

ولم يفعل أى حاكم من حكام الاسلام الأقـوياء ما فعله الاسـبان بالعرب من استئصال شأفة الرعايا من أصحاب الأديان الأخرى .

أو نفيهم من بلادهم ، وكان هؤلاء الرعايا فى الأغلب عزلا عن أى سلاح وان الذين لم يفعلوا ذلك ، انما تحرروا بتسامح الاسلام وأقول الشريعة السمحاء .

ولا شك أن من العوامل التى نشرت الاسلام حياة الورع والتقوى التى يحياها المسلمون وقد أتى ذلك فى عديد من الرحالة الغرباء وأثر فى الأوروبيون أيام الحروب الصليبية .

***

وهناك فى الوقت الحاضر عاملان رئيسيان يعملان على تنشيط الدعوة الى العالم الاسلامى أولهما انتعاش الحياة الدينية التى يبدأ تاريخها من حركة الاصلاح الوهابية وحركة الوحدة الاسلامية التى تسعى الى ربط جميع شعوب العالم برباط من المودة والتعاطف وان ماستحدثه هاتان الحركتان من تأثير سيكون أبعد مدى فى حياة الدعوة الاسلامية .

٢ ـ ويحاول العلامة الفرنسى ادوار مونتيه الذى كان عام ١٩٢٩ مدرسا بمدرسة الالسن الشرقية فى جامعة جنيف أن يصور فى بحث مفصل انتشار الاسلام ، وكان هذا الباحث قد قام بترجمة القرآن الى اللغة الفرنسية ترجمة جيدة وصفها الامير شكيب ارسلان بانها كانت اقرب ماتكون الى النص الأصلى كما صنف كتابا بسم الاسلام أخرجه عام ١٩٣٣ وقد القى مجموعة محاضرات عن الاسلام فى الكوليج دى فرانس تلخص رأيه ومفهومه ؛ يقول :

انتشر الاسلام بسرعة منذ أول ظهوره ، وقليل من الأديان التى شابهته ، وانبثت دعوته الى اليوم مثله ، وان النجاح الذى صادفه منذ انتشاره قد كان داعيا الى التقول فى أسبابه خطأ ، اذ عجب الناس كيف انتشرت سلطة محمد واصلاحهخارج جزيرة العربوقال القائلونولا يزالون يقولون ، ان السبب الداعى الى انتشار الدين الاسلامى كان منبعثا من أسباب زمانية كانت من طبيعة محمد والخلفاء الأول ، وقبل كل شىء دعت اليها القسوة وقوة السيف ، ولكن الواقع كذب هذا الظن اذ لم ينظر الناظرون الى الأسباب المختلفة التى نشأت منها سرعة انتشار الدعوة الى هذا الدين .

كان محمد رسولا قام باعتقاد خالص وأتى على الوثنية وتوخى أن ينقذ مواطنيه من حالة فى الأخلاق والمدنية منحطة كل الانحطاط ، فلا مجال للشك فى اخلاصه أو عقيدته الدينية لتى كانت متشبعة بها نفسه وفكره ، ثم نشأت جرثومة مزج « الاسلام » للسلطتين الدينية والمدنية اللتين تجلى أمرهما فى الحضارة الاسلامية وكانت سبب عظمتها ومجدها .

ان هذا الدين ما برح ينتشر الى اليوم ، ويرجع ذلك الى أسباب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، ففى أفريقيا مثلا أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقيين ، وهناك طرق دينية أخذت على نفسها نشر الدين الاسلامى على أن الاسلام ينتشر بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم ، لأن كل مسلم هو داعية دين بحد ذاته ، والمسلم على الجملة مؤمن مخلص فى ايمانه .

ومن خصائص الاسلام أن يستولى على المعتقد به فيجعله مأخوذا به قلبا وقالبا والايمان بالجماعة هو خلق أساسى فيمن يدينون بالاسلام .

والمسلم يبشر بدينه وهو متوفر على تجارته أو عامل فى صناعته ، والاسلام ينتشر من نفسه بواسطة القوافل التى ترحل الى البلاد الوثنية ، ودعاة الاسلام فيما عرفوا من الغيرة يعمدون الى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب التى يبثون دعوتهم بين أهلها والوسائط الاجتماعية والاقتصادية دخل كبير فى ذلك .

وهم فى كل حالاتهم يظهرون « الاسلام » بأنه دين الفطرة . والمدرسة هى احدى العوامل الفعالة فى نشر الدين ، فالمسلمون على الجملة ينزلون ويتوطنون فى بقعة جديدة يصرفون أول عنايتهم فى انشاء مسجد ويجعلون بجانبه مدرسة . وترى المرأة عند قبائل البجه النازلة بين النيل الأزرق وأعالى البلاد الممتدة من شمال سطح بلاد الحبشة أرقى بعقلها من الرجل ، ولذلك يختار دعاة الاسلام تعليمهن والاعتماد عليهن فى بث الدعوة على نحو ما يفعل السنوسية .

الباب السابع

لماذا أسلمت ؟

لم يزل الاسلام قادرا على ان يوسع افاق دعوته ، ويحقق اعتناق عـدد كبير من الناس له ، غير ان الظاهرة الجديرة بالتامل والدرس ، انمـا هى ظاهرة اسلام المتازين والمثقفين من العلماء أو المؤرخين ، وخاصة من ابنـاء العالم الغـربى ، هـذه الظاهـرة جديرة بان تدرس من خـلال كتـابات عدد كبير من هؤلاء المسلمين ، وكنا قد قدمنا فى كتابنا ((الاســلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى)) طائفة منهم ، وهذه طائفة أخرى تضم :

*** الدكتور عبد الكريم جرمانوس : استاذ الادب العـربى بجامعـة بوخارست .**

*** المخرج السينمائى وكس انجرام**

*** الكابتن جيم جورج ولسن**

*** الكاتب المؤرخ : ليوبولد فابس ((محمد أسد))**

*** الكاتبة البريطانية : ايفيلين كوبولد**

ولنبدأ بالدكتور جرمانوس الذى يصور تجربته مع الاسلام فيقول :

خالجنى منـذ طفولتى حنين الى أرض الاسـلام ، وانى وأنا الرجل الأوربى الذى لم يجد فى بيته الا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية ، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الاسلام ، وعظمة سـيطرته على نفوس معتنقيه ، بينما الأوربيون يتجهون بملكات الكشف والاختراع الى وسائل التدمير ، والفتك ، يبقى الشرق الاسلامى مستوليا على لبى روحانيته ومثله العالية ، يحافظ الاسلام على مبادئه الداعية الى الاخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشرى ، وربما التمس الأوربيون أسباب سعادتهم فى الاستزادة من نعيم البدن ، بينما يقدم الاسلام لمعتنقيه سعادة نفسية ، اذ قامت تعاليمه على ان السـعادة لا تكون فى عرض زائل . وما زال الاسـلام هو العقيدة المتجددة أبدا ، قالوا ان الدين الاسلامى هو علامة على سقوط المسلمين ، ولكنى أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الاسلام بأنه لا يوجد فى تعاليم الاسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة .

« فالقرآن » كتاب ملؤه الصراحة والوضوح لمن صدقت رغبته فى تفهمه وان « محمدا » رسول الله الأعظم مصلح ثورى عرفه التاريخ .

ان حجر الزاوية فى بناء هذ االدين أن الناس أمام الله سواء ، ومن آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته ، ويطلب الاسلام من المسلمين أن ينظر أحدهم الى الآخر كأخ له . وفى التاريخ الاسلامى الدليل الصحيح على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحدا من جيرانهم الذين لم يؤمنوا بايمانهم .

ان أوربا لم تعرف الاخاء بين الناس الا بعد الثورة الفرنسية ، بينما دعا الاسلام اليه وطبقه المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو الف عام .

ولقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية من ابتكار القرن السابع عشر فى أوربا بينما هى من حقائق الاسلام وأصوله منذ نشأ .

ولم يعترف حكام أوربا « بالاشتراكية » الا فى السنوات الحديثة ، بينما سبقهم الاسـلام الى المساواة بين المسـلمين وأهل الكتاب « يهود ومسيحيين وغيرهم ، فأقام بذلك النظام الاشتراكى الصحيح واستمتع فى ظله كافة الناس بكل الحقوق الانسانية .

ولقد حرم الاسلام الخمور وسبق أوربا فى مجال القانون بأكثر من ألف عام وحض على النظـافة . وعلى اتباع آداب المعـاملة الرفيعة ، ولقنهم الفروسية .

وانى أجرؤ على القول بان الاسلام منح المرأة حقوقا قانونية أكثر مما كان لها فى ظل المسيحية ولقد اعترف بإباحة تعـدد الزوجات فى حدود معقولة . وبالأمر الواقع ، أى ما تقتضيه غريزة الرجل ، فحـال بهذا دون التعدد غير المشروع الذى يسود الجماعة الأوربية هذه الأيام .

والمسلم اذا كان صادق العقيدة فهو انسان متدين روحى مستنير ذو حاسة انسانية من طراز سام مما يثير التقدير والحب له .

انى ما زلت متعلقا بالاسلام ، على الرغم من انى « أوربى » خال من كل دم دخيل وذلك لاعتقادى : أن مستقبل العالم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده لن يكون الا فى المزاوجة السعيدة بين الحضارة بدرسها وعلمها ، والروح الاسلامية التى ينطوى عليها عقائد الاسلام وانى

لآمل أن يكون الاسلام قادرا مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة وهى « وحدة الجماعة الانسانية » .

٢ — ويقول :

ركس انجرام :

لماذا أسلمت ، لماذا اتخذت الاسلام دينا ؟

ذلك لأنى أعتقد أن الاسلام هو الدين الذى يدخل السلام والسكينة الى النفس ، ويلهم الانسان العزاء وراحة البال والسلو فى هذه الحياة ، وقد تسرب روح الاسلام الى نفسى فشعرت بنعمة الايمان بالقضاء الالهى ، وعدم المبالاة بالمؤثرات المادية من لذة وألم .

انى لم أقدم على هذا التعبير لمجرد خاطر وقتى طرأ على فكرى ، بل أنى قد درست الدين الاسلامى مدة سنتين ، ولم أتخذه دينا الا بعد بحث قلبى عميق ، وتحليل نفسى طويل ، لم أغير دينى الا لكى أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنونى ، ولأنعم بالسكينة فى ظلال الهدوء والتأمل . بعيدا عن متاعب الهموم والمحن ، التى يسببها التكالب على الكسب ، والتهالك على المال ، الذى أصبح معبود البشر والهمم ولما اسلمت استطعت أن أخلص نفسى من براثن الاغراء وخدع الحياة الباطلة ، والشراب والمخدرات وجنون انجازباند ، نعم لما أسلمت أنقذت ذهنى وعقلى وحياتى من الهدم والتدمير .

لقد كان على رجل عربى طويل مهيب ، أن يقف على مأذنة ويؤذن للصلاة لتصويره فى شريط سينمائى لى ، وبينما كان ذلك والمصورون يصورون المنظر ، وأنا أقف جانبا ، أرقب ذلك كله ، كان صورته فى ارتفاعه وانخفاضه ينفذ الى أعماق قلبى .

ولما انتهينا من التصوير دعوت هذا العربى الى مكتبى وأخذت أسأله عن دقائق الديانة الاسلامية ، واعتنقت الاسلام بعد ذلك ، وأخذت أصلى معه ، وشعرت بقناعة النفس تغمرنى رويدا وبدأت أشعر بالسعادة وأكره كل الرغائب التى كانت تأسر نفسى .

وكان بعد ذلك أن جاء اليوم الذى اعتقدت فيه انى لا أستطيع أن أوفق بين عملى السينمائى وديانتى الاسلامية ولابد أن يذهب أحدهما ، وكان ثمة عراك نفسى ، شديد ، هل أضحى بعملى ومستقبلى من أجل دينى ، أم دينى من أجل مستقبلى ، هكذا بقيت أسهر الليلة بعد الليلة ، راقدا فى فراشى وعيناى مفتوحتان حتى الصباح أفكر — فى حل هذه المشكلة حتى جاءنى الرد من الله :

يجب أن أترك عملى السينمائى وأبعد عن أخاديع « هوليود » ومغرياتها، ولقد كان ذلك أليما على حقا ، ولكننى قطعت فى الأمر نهائيا عندما كنت أقوم بعمل شريط سينمائى فى « ينس » فقد قمت ذات ليلة أصلى ، وبقيت أصلى مدة طويلة ، فزادت قوتى واشتدت عزيمتى ، وفى اليوم التالى قلبت ظهرى لعملى ، وأعطيت جسمى ونفسى وحياتى لمحمد .

وأنا اليوم ، ابن الاسلام ، وانى سعيد أكثر مما كنت فى أى يوم من أيام حياتى وربما ، اذهب الى افريقيا ، واذا ذهبت فسأخلع مدنيتى الغربية مع ثيابى الغربية وكمؤمن يدين بدين الشرق ، أصبح شرقيا ، واذا ذهبت مرة فلن أرجع فحياتى كرستها لله وعملى قد مات ونسيته .

٣ — ويصور الكابتن ولسن تجربته ازاء الاسلام فيقول :

ولدت فى اسكتلندا من أب وأم انجليزيين ، ولم أر أبى الذى قتل فى حرب البوير ١٩٠٠ وما زلت طفلا ، ومرت الأيام ونحن نعيش عيشا رغيدا حتى قامت الحرب العظمى ١٩١٤ تطوعت فى الجيش وركبت البحر الى فرنسا ، وانضممت الى فرقة الفرسان وتقاذفتنى ميادين القتال كأنها ديار الجحيم ، وقضيت فى الميدان الغربى فترة رأيت فيها من أهوال الحرب وفظائعها ، مالا طاقة لى بوصفه ، أواخر ١٩١٨ ، بعد أن أمضيت أربع سنوات فى هذا الجحيم . فلما عدت وجدت أمى قد ماتت ، وأخوتى الثلاثة قد قتلوا فى الحرب ، فهمت على وجهى ، ورحت أطوف الدنيا فجست خلال الهند والصين واليابان ولم أجد ما أقطع به الوقت سوى دراسة اللغات والديانات . وفى سوريا تعلمت العربية ودرست مختلف

الأديان فلم أجد مثل ما وجدت من العزاء والطمأنينة فى مطالعة القــرآن الكريم ، طالعته مرارا وتمعنت فى معانيه وأشربت روحى بروحه فرأيت فيه سحرا حلالا ولم يكن يوم يمر بى دون أن أتلوا آياته ، وفى الثلاثينيــات قدمت الى الأسكندرية وهمت على وجهى حتى وصلت الى دمنهور ، وعلى شاطىء ترعة هناك رقدت ، وفى أثناء نومى رأيت دخانا يتصاعد من الأرض حتى يتكاثف فى السماء وينعقد وقد أضاء نور عجيب ثم تكونت منه كلمة (الاسلام) وصحوت وكلمة الاسلام لا تزال ملء ناظرى وحواسى ، وما كنت أفكر من قبل فى اعتناق الاسلام وشعرت للمرة الأولى براحةوطمأنينة وفى الطريق ما مررت بقروى الا أقرأنى الســلام ودعانى للطعام ، وبذل جهده فى اكرامى ، وأضافنى فى منزله ، أنا غربى وهــم شرقيون ، أختلف عنهم طباعا ودينا فما لهم يسارعون الى اكرامى ، أنا ، الذى رأيت كيف يرتاب الناس من بعضهم ، ولو أنك مررت على فلاح فى أوربا وقرأته الســلام فهل يكرمك مثل هذا الاكرام ، واذا وجدت رجلا يأكل ووقفت الى جانبه فهل هو مشــاركك طعامه عن طيب خاطر ، وهــل اذا قرعت بابا يفتح لك مصراعيه فتنزل ضيفا كريما ، تواردت هذه الخواطر على نفسى ، وحاولت الاجابة عنها وعند ذاك علمت أن (الاســلام) هو الذى جعل تلك النفوس سامية كريمة .

ونمت مرة أخرى ورأيت عمود الدخان ينقلب حروفا من ضوء وتتجمع فتكون كلمة (الاسلام) وافقت وقد أيقنت أن الله اختار لى (الاسلام) دينا وشعرت براحة عجيبة ، فى أن اعتنق هذا الدين ، دين الشفقة والحنو والايثار .

٤ — أما العلامة ليوبولد فابس : « محمد أسد » فانه يصل الى أعماق النفس الانسانية فى تجربته الفريدة :

« لماذا اعتنقت الاسلام ؟ » .

يجب أن أعترف بأننى لا أعرف جوابا شافيا .. لم يكن الذى جذبنى تعليما خاصا من التعاليم ، بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتــراص ، بما

لا نستطيع له تفسيرا من تلك التعاليم الأخلاقية الى منهاج الحياة العملية ولا أستطيع أنأقولأى النواحى قد استهوتنى أكثر من غيرها ، فان الاسلام على ما يبدو لى (بناء تام) الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا .

ومنذ ذلك الحين سعيت الى أن أتعلم من الاسلام كل ماأقدر عليه : لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول عليه السلام ، لقد درست لغة الاسلام وتاريخ الاسلام وقضيت أكثر من خمس سنوات فى الحجازليطمئن قلبى بشىء من البيئة الأصلية للدين الذى قام النبى العربى بالدعوة اليه وقد تمكنت من دراسات وجهات النظر الدينية والاجتماعية التى تسود العالم الاسلامى ،هذه الدراسات والمقارنات قد خلقت فى العقيدة الراسخة بان الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر .

ان الاسلام فلك ثقافى مستقل ونظام اجتماعى واضح الحدود .

والانسان فى الاسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا ، وليس ثمة حاجة الى تقشف يفتح به الانسان بابا سريا الى التطهر الروحى ، فالاسلام ليس عقيدة « صوفية » ، ولا هو « فلسفة » ولكنه نهج فى الحياة حسب قوانين الطبيعة التى سنها الله لخلقه ، ذلك هو السبب على ما أظن لهذا الشكل فى الصلاة الاسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية .

***

ان بعض النقاد يجعلون هذا النوع من الصلاة برهانا على أن زعمهم بأن الاسلام دين رسوم ومظاهر ، أولئك الذين تعودوا أن يفصلوا تماما بين الأمور الروحية والأمور الجسدية كما يفعل اللبان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته ، لا يفهمون بسهولة أن الحليب الصريح فى الاسلام يجمع هذين العنصرين فيعيشان معا متجانسين ويعبران عن نفسيهما أوضح التعبير .

وكذلك الأمر فى فريضة الطواف أى السعى حول الكعبة فى مكة ، مامعنى هذا — هكذا يقولون ، ان الجواب واضح تماما : اذا نحن درنا حول شيء ما ، فاننا نقرر أن هذا الشيء انما هو النقطة المركزية لعملنا .

ان الكعبة التى يولى كل مسلم وجهه شطرها فى صلاته ترمز الى وحدانية الله وأن الطواف حولها يرمز الى جهود الحياة الانسانية .

ان العبادة فى الاسلام ليست محصورة فى أعمال الخشوع الخالص، كالصلوات والصيام مثلا ، ولكنها تتناول كل حياة الانسان العملية أيضا ، ان موقف الاسلام فى هذا الصدد لا يحتمل التأويل ، انه يعلمنا أن عبادة الله الدائمة ، والمتمثلة فى أعمال الحياة الانسانية المتعددة جميعها ، هى معنى هذه الحياة .

ذلك أن « الاسلام » على أنه تعليم لا يكتفى أن يأخذ على عاتقه تحديد الصلوات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط ، ولكنه يعرض أيضا بمثل هذا التأكيد للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية . وعبادة الله فى أوسع معانيها تؤلف فى الاسلام معنى الحياة الانسانية .

هذا الادراك وحده يرينا امكان بلوغ الانسان (الكمال) فى اطار حياته الدنيوية الفردية ، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الاسلام وحده يعلن أن الكمال الفردى ممكن فى الحياة الدنيا . ولا يؤجل هذا الكمال الى ما بعد اماتة الشهوات الجسدية بل يؤكد أن الانسان يستطيع بلوغ الكمال فى حياته الدنيا الفردية .

ومن أجل هذا نرى الاسلام وهو ليس بدين لقهر النفس يترك للانسان مجالا واسعا فى حياته الشخصية والاجتماعية كيما تستطيع الصفات المختلفة من العواطف والميول النفسانية أن تجد سبيلها الى التطور الايجابى المتفق مع استعدادها الذاتى .

ان أساس (حرية) الاختيار فى الاسلام تقوم على أساس أن الأصل فى طبيعة الانسان هو الخير ، وذلك على خلاف ماتقول بعض الأديان

الانسان خلق خاطئا ، أو دنسا ، نرى الاسلام يقر أن الانسان خلق طاهرا وخلق تاما .

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ثم ان الانسان يستطيع أن يحتفظ بكماله الشخصى أو يستعيده ، فيما لو فقده ، اذ أدرك بوعيه الكامل وحدانية الله تعالى ثم تقيد بشرائع الله .

وعلى هذا فليس الشر فى الاسلام أساسيا أبدا ولا أصيلا أيضا ، ولكن مما يكتسبه الانسان أثناء حياته ، ومن بين سائر الاديان نجد الاسلام وحده يتيح للانسان أن يتمتع بحياته الدنيا الى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحى دقيقة واحدة . ليس فى الاسلام خطيئة أصيلة موروثــة ، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية ، ان كل مسلم رهين بما كسب فهو يحمل فى نفسه جميع وجوه الامكان للنجاة الروحية أو للخيبة الروحية . والاسلام ينظر الى الحياة بهدوء واحترام ولكنه لا يعبدها ، لكنه ينظر اليها على أنها (دار ممر) ضرورية فليس من حق الانسان ان يحتقر الحياة الدنيا ولا ان يبخسها شيئا من حقها ، من أجل هذا كان لحياء الانسان قيمة عظمى .. فليس مملكة المسلم فى هذا العالم وحده ولا مملكته ليست فى هذا العالم ، بل هــو يختار طريقا وسطا . ان النجاح المادى مرغوب فيه ولكن ليس غاية فى نفسه . بل يقود الاسلام الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية فى كل مايعمل ، والغاية من جميع نشاطنا العملى يجب أن يكون خلقيا .

***

ان الاسلام لم يقف يوما سدا فى وجه التقدم والعلم ، انه يقدر الجهود الفكرية فى الانسان الى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة وما من دين ذهب أبعد من الاسلام فى تأكيد غلبة العقل وبالتالى غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة ولكن الشيء الوحيد الذى لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظــروا بعيون غريبة ويروا الآراء الغريبة ، ان المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية انها عامة بالمعنى الذى يجعل الحقائق الطبيعية عامة . الا ان وجهة النظر التى ترى فيها هذه الحقائق وتعرض وتختلف باختلاف المزاج الثقافى فى الشعوب

ان العلوم تتعلق بملاحظة الحقائق وبجمعها واستخراج القواعدالمعقولة منها أما النتائج الاستقرائية أى فلسفة العلوم فانها لا تنبنى على الحقائق والمشاهدة فقط ، ولكنها تتأثر الى حد بعيد جدا بمزاجنا المتأصل فينا ، والعلوم ليست فى ذاتها مادية ولا روحية ولكنها يمكن أن تنقلب الى هذا المظهر أو ذاك حسب استعدادنا العقلى الخاص ، والغرب ذو استعداد مادى ، وهو من أجل ذلك مناهض للدين فى مدركاته ، وكذلك نظام التربية الغربية على وجه العموم ، ومن سوء الحظ أننا اعتمدنا أبدا على الوجهة الأوربية فى عرض العلم ، وعلينا ألا نتردد فى درس العلوم الرياضية والطبيعة حسب الأسس الغربية ولكن يجب الا نتنازل للفلسفة الغربية عن أى دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين وسيكون من واجب العلماء المسلمين اذا وصلوا الى حدود البحث العلمى أن يستخدموا نظرهم العقلى مستغنين عن النظريات الفلسفية الغربية ، ومن الممكن دائما أن ندرس العلوم من غير أن نخضع خضوعا للاتجاه العقلى فى الغرب . كما أن تعليم الادب الاوربى على الشكل الذى يسود اليوم فى بعض مؤسسات التعليم فى بعض الاقطار الاسلامية يقود الى جعل « الاسلام » غريبا فى عيون الناشئة المسلمة مما يؤدى الى خلق بعض التبرير لسعى الأوربيين أن ينظروا الى الفروق بين الشرق والغرب نظرا مبنيا على مقياس مزعوم « رومانيون وبرابرة » ثم أن براهينهم تقوم على الزعم بأن تطور العالم لا يمكن أن ينظر اليه الا على أساس تجارب الثقافة الغربية .

ومن شأن قبول هذا أن يخلق شعورا بالنقص ، كما أن الاخلاق فى الاسلام وخصوصا فى ادراكها للسلوك الاجتماعى والشخصى وللعدل والحرية انما هى أكثر نموا وأحسن كمالا من المدنية الغربية . لقد أبطل الاسلام العصبية العرقية (الحقد الجنسى) وشق الطريق الى الاخاء الانسانى والى المساواة .

***

ان أهم مآتى الاسلام ، تلك المآتى التى تميزه من سائر النظم المطلقة ، هو التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الناحية الانسانية ،

هذا سبب من الاسباب التى عملت على ظفر الاسلام فى ابان قوته أينما حل ، لقد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التى لا تجعل احتكار الدنيا شرطا للنجاةفى الآخرة ، هذهالخاصة الظاهرةفى الاسلام تجلو الحقيقةالدالة على أن «نبينا» كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية فى كلا اتجاهيها : فى المظهر الروحى والمظهر المادى وسنة الرسول تالية للقرآن ، وهى المصدر الثانى للشرع الاسلامى وللسلوك الشخصى والاجتماعى .

ان الاسلام يحمل الانسان على توحيد جميع مناحى الحياة ، وبما أنهذا الدين واسطة الى هذه الغاية فانه يمثل فى نفسه مجموع مدركات لا يجوز أن يضاف اليها شىء أو أن ينقص منها شىء . كما أنه ليس فى الاسلام مجال للخيرة ، فاذا قبلنا تعاليمه كما بسطها القرآن الكريم فعلا أو كما أوردها الرسول فيجب أن نقبلها تامة والا خسرت قيمتها ، ومن سوء الفهم الاساسى للاسلام أن نظنه ، وهو دين العقل يخضع تعاليمه للاختيار الشخصى ، هذا شأن الاسلام فان العقل البعيد عن الهوى يقبله ، وليس من شخص بعيد عن الهوى يحاول فى الاسلام ليزعم أن فيه شيئا مخالفا للعقل ، الا أنه مما لا شك فيه أن ثمة أشياء وراء حدود العقل الانسانى ولكنها لا تخالفه .

ان عقلنا لا يستطيع بما يركب فى طبيعته أن يحيط بفكرة (الكلية) اننا نستطيع ان نفهم من كل شىء تفاصيله فقط ، اننا لا ندرى ما اللانهائية ولا ما الازل حتى اننا لا نعلم ما الحياة ، اما فى قضايا الدين المبنية على أسس مطلقة فاننا نحتاج ضرورة الى هاد يتصف عقله بشىء فوق ما يتصف به التفكير المادى ، اننا نحتاج الى من أشرق عليه نور الله . أو بكلمة واحدةالى « نبى » فاذا كنا نعتقد أن القرآن الكريم كلام الله وان محمدا رسول الله ، فاننا نصبح حينئذ ملزمين بأن نتبع الرسول أدبيا وعقليا .

نحن نعد الاسلام أسمى من سائر النظم المدنية ، لأنه يشمل الحياة بأسرها ، انه يهتم اهتماماواحدا بالدنياوالآخرة ، وبالنفسوالجسد ، وبالفرد والمجتمع ، أنه لايهتم فقط لما فى الطبيعة الانسانية من وجوه الامكان الى السمو بل يهتم أيضا لما فيه من قيود طبيعية ، انه لا يحملنا على طلب المحال ،

ولكنه يهدينا الى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد ، والى أن نصل الى مستوى أسمى من الحقيقة ـ حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأى وبين العمل ، انه ليس سبيلا من السبل ، ولكنه السبيل الوحيد ، وان الرجل الذى جاء بهذه التعاليم ليس هاديا من الهداة ، ولكنه « الهادى » ، فاتباعه فى كل ما فعل وما أمر اتبـاع للاسلام نفسه ، أما اطراح سنته فهـو اطراح لحقيقة الاسلام .

وبعد فليس ثمة علامة ظاهرة تدل على الانسانية فى نموها الحاضر قد استطاعت ان تشب عن الاسلام ، بل انها لم تستطع ان تخلق نظاما خلقيـا أحسن من ذلك الذى جاء به الاسلام ، انها لم تستطع ان تخلق نظاما عـلى أساس علمى كما استطاع الاسلام ان يفعل ، انها لم تسـتطع ان ترفع قـدر الانسان ولا ان تزيد من شعوره بالأمن ولا فى رجائه الروحى ولا فى سعادته

٥ ـ اما الكاتبة البريطانية ((ايفلين كوبلد)) فقد صورت فى كتابهـا (البحث عن الله) تجربتها الشائقة مع الاسلام ، وهى مجموعة يوميات كتبتها بعد ان قامت بأداء فريضة الحج بعد اسلامها عام ١٩٣٣ .

والكاتبة نبيلة انجليزية استطاعت أن تهتدى الى الاسـلام عن طريق قراءاتها فى مقارنات الاديان وقد ترجم بحثها الى اللغة العربية وهذه خلاصة تجربتها :

تقول :

سألنى كثيرون كيف ومتى أسلمت ؟

وجوابى على ذلك أنه يصعب على تعيين الوقت الذى سطعت فيه حقيقة الاسلام أمامى ، فارتضيت الاسلام دينا . ويغلب على ظنى أننى مسلمة منذ نشأتى الأولى ، وليس هذا غريبا اذا ما راح المرء يفكر فى أن الاسلام هو الدين الطبيعى الذى يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه .

انى لأذكر أيام طفولتى وكيف أنى صرفت الشـتاء مع والدى فى قصر عربى بالجزائر ، وكيف كنت كثيرة الرغبة وأنا ما زلت طفلة فى الذهاب الى المسجد مع بعض الرفاق . استمتع بما يغمره من حيـاة روحية لطيفة رائعة : ولعمرى لقد كنت مسلمة منذ ذلك العهـد واذا كان هـذا مما لم يدر فى خلدى ولا ألقى فى روحى .

ثم تناسيت مع الأيام بعد مغادرتى الجزائر صلاتى فى المسجد ، وذهبت الأيام بما كنت قد تلقيته من مبادئى العربية الأولى : ومضت الأيام : وفيما أنا فى حوار مع بعض المعارف قلت من غيـــر أن أدرى : انى من المسلمين . ولعمرى ما أزال أحار فى الحافز الذى دفعنى الى ذلك ، وما أعلم أنتى رحت أفكر فى الاسلام فى كثير أو قليل . ومهما يكن السبب فهـــذا نور جديد أضاء لى ما أمامى : فكان من الحق على أن أقرأ كل مايتعلق بهذا « الدين» الذى ارتضيته لنفسى وكلما أمعنت فى القـــراءة زاد ايمانى واعتقادى بأن الدين الاسلامى أكثر الأديان طواعية وعملية قربا من العقـــل : وأنه الدين الوحيد الذى يستطيع تفسير النظم المتعلقة الحاضرة والبلوغ بالانسانية الى ما ترتجيه وتطلبه من سلام وطمأنينة .

و « الاسلام » كلمة تعنى التسليم لله وهى تعنى السلام أيضا ، ولعل أجمل ما فى الاسلام ما يضطرب فيه من وحدانية الهية واخوة انسانية : وخلو من التقاليد والبدع ، والتصاقه كل الالتصاق بما فى الحياة من أمور عملية .

ولقد سئل محمد عليه الصلاة والسلام يوما عن الاسلام .

فقال : اطاعة الله ومعاملة الناس بالاحسان والانصاف .

وسئل مرة أخرى عن المسلم فقال :

المسلم من سلم الناس من يده ولسانه والايمان فى القرآن انما يقوم على العمل الصالح وليس هناك فى الاسلام ايمان دون ما عمل صالح أبدا .

وهذا ما يجده المرء مرددا فى القرآن فى مختلف سوره وشتى آياته ولقد فرض الاسلام الحج على المسلمين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ومن ينكر فضله وما يغمر النفس فيـــه من انطلاق الى المثل العليـــا والروحية ، وانفلات من أغراض الدنيا والتوجه الى الله بقلب سليم مع هذه الألوف المؤلفة من البشر علىاختلاف أمصارهم وتباعد لغاتهم وتعدد مشاربهم يأتون من أقصى الأرض ويتحملون فى طريقهم المشاق وبعد المسافات .

ولقد أشار الى هذه الظاهرة الأستاذ سنوك فقال : لقد سبق الاسلام الحكومات الأوروبية الى التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره

من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع الى الحج سبيلا ، ولعمرى أن هذه الديمقراطية والاخوة التى أقرها الاسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يخجل الجماعات الأخرى التى لم تفطن لها ولا دعت اليها .

أما القرآن فان بديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفا ولا تعريفا .

وقد أشار الدكتور مار دويل الى ما للقرآن من مزايا لا توجد فى كتاب غيره فقال ؟ أما أسلوب القرآن فانه أسلوب الخالق عز وجل وعلا ، ذلك الأسلوب الذى ينطوى على كنه الكائن الذى صدر عنه ذلك الأسلوب لا يكون الا الهيا ، والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تأثيره وسحره وان سلطانه على ملايين المسلمين لبالغ الحد الذى جعل المبشرين يعترفون بالاجماع بعدم امكان اثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه الى الأبد .

هذا هو الكتاب الذى خلق العرب خلقا جديدا ثم وحد صفوفهم ودفعهم الى العالم فاقتحموه وعملوا فيه على نشر حضارتهم وثقافاتهم وفلسفتهم بينما كانت أوربا تتخبط فى جهل فادح واختلاف داهم .

والواقع أن للقرآن أسلوبا عجيبا يخالف ما كانت تنتهجه العرب من نظم ونثر ، فحسن تأليفه ، والتئام كلماته ، ووجوه ايجازه ، وجودة مقاطعه وحسن تذليله وانسجام قصصه وبديع أمثاله كل هذا وغيره جعله فى أعلا درجات البلاغة وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده وقد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قل أن نجد فيه غريبا فاذا أضفت الى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته واعجازه .

وان أثر القرآن فى كل ما بلغه العرب من التقدم لا ينكر فهو الذى دفع العرب الى فتح العالم ومكنهم من انشاء امبراطورية فاقت امبراطورية الاسكندر الأكبر والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة ، كما أن الاسلام هو الذى مكن العرب من بين الشعوب السامية أن ينزلوا أوربا فاتحين حاكمين بخلاف الفينيقيين الذين نزلوها متاجرين ، واليهود الذين قدموها هاربين ، وقد جاء العرب الى أوربا ومعهم شعلة العلم فى ذلك الزمان

الماضي وهو ما يحملنا على أن نبكي مصرع الأندلس لأن مصرعها كان ضربة للحضارة الحديثة والعمران القديم .

ولقد كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها ، فلما جاء محمد خلق هذه الأمة خلقا جديدا يصح أن يكون أقرب الى المعجزات .

ولقد زرت القبر الشريف الذي يضم النبي محمد ووقفت باهتة ذاهلة باكية مسترجعة من خشية الله .. ذلك أن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الافئدة فما بالك بالعظمة اذا انتظمت مع النبوة وما بالك بها وقد راحت تضحى بكل شيء في الحياة في سبيل الانسانية وخير البشرية .

رحمتك اللهم .. رجل تبعث به أمة كاملة وترسل على يديه ألوان الخير الى الانسانية .

ثم مشيت نحو المسجد وكانت الشمس قد أشرقت أو كادت وكان النهار ما يزال باردا زاهيا فلما تلمسنا مدخل المسجد النبوي تولتني رعدة عظيمة وخلعت نعلي وتقدمت أمشي في صحن الجامع أتابع خطوات رفيقي ثم أخذت لنفسي مكانا قصيا صليت فيه صلاة الصبح وأنا غارقة في عالم هو أقرب الى الأحلام وأخيرا تقدمت نحو القبر الشريف وكان الزحام شديدا حوله والمؤمنون سكوت يصلون في قلوبهم والقلوب واجفة والأفئدة خاشعة والعيون منكسة ولم يكن هناك حوله من يصلي ، ذلك أن « محمدا » منع الصلاة عند قبره ونهى عنها حتى لا يتخذ الناس قبره موطنا للعبادة أو كعبة يتقرب بها الله ، ذلك انما تكون الصلاة لله وحده جل جلاله وليس في الاسلام صلاة لغير الله ولا قبلة غير الكعبة .

ولو استطعت ما فارقت المسجد ذلك أني وجدت فيه انطلاقا من هذا الجو الدنيوي لم أكن أعهده ولا أعرفه .. ذلك أني وجدت فيه حالة روحية جديدة ملأتني نشاطا وقوة ورقة وحبا لله وعبادة ، والحق أقول أن الحب عندنا وكما يفهمه الغربيون لا يزال قريبا من الغريزة محصورا في دائرتها على ما تلهمه هذه الغريزة لتخليد النوع وتحسينه ، أما المناطق العليا التي يرتفع

الحب المهذب اليها .. أما الحب بمعناه الانسانى السامى من الاشتراك فى تمثل الحياة لتزيد الحياة قسوة وجمالا وسناء ، أما الحب على أنه عاطفة انسانية سامية أساسها انكار الذات والرقى النفسى الى عالم الخير والجمال والحق ، فهذا لا يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده انسان وهو الى ذلك كله موجود فى الاسلام منطو فى هذه الاخوة الانسانية التى تجعل من الفرد عبدا ليعمل لخير المجموع وفردا قصارى همه أن يعمل للاحسان وبالاحسان أبدا .

وان من طرافة الاسلام هذا السلام الذى أمر به القرآن أمرا : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وقد أشار المستر بيكتول الكاتب الانجليزى الى هذه الظاهرة الغريبة الفذة فى تاريخ الانسانية وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعم الغرب من أقصاه الى أقصاه ويتصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره كيف أن الاسلام يقف وحيدا فى هذه الظاهرة حيث تقوم الاخوة الاسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات والعرى .

وفى مكة طفت وسعيت فى البيت وزرت الكعبة وطفت حولها ولقد تولانى ما تولى هذه الجماعة من خشوع وذهول وتوبة واستغفار وايمان فرفعت رأسى الى السماء ودعوت مع الداعين ، وبكيت مع الباكين وطفت مع الطائفين وأسلمت نفسى للواحد الأحد وغمرتنى روحية الاسلام فتناسيت نفسى وتناسيت كل شىء .

اخترت الدفاع عن الاسلام

هذا بحث كتبه المؤرخ الغربى « جيمس متشنر فى الصحف الأوربية فأثار ضجة كبرى عندما انتدب نفسه للدفاع عن الاسلام يقول :

ان محمدا هذا الرجل الملهم الذى أقام الاسلام ولد حوالى ٥٧٠ م فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ، ولد يتيما محبا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين . ولما بلغ العشرين من عمره اشتغل بالتجارة وأدرك فيها النجاح ــ وأصبح يشرف على قافلة لأرملة غنية ، وفى الخامسة والعشرين عرضت عليه هذه السيدة الزواج منها اعترافا بفضله ، وقد عاش وفيا لها طوال حياته ، وفى الأربعين من عمره ، كان أخذ الوحى ينزل عليه وأحس محمد ككل نبى عظيم قبله بالاجفال من حمل رسالة الله الى الناس . وقد أمره جبريل أن « اقرأ » ولم يكن محمد يعرف القراءة والكتابة ولكن جبريل أخذ يملى عليه هذه الكلمات المنزلة التى سرعان ما أحدثت ثورة فى جانب من العالم حين دعت الى توحيد الله .

وقد عرض عليه فى آخر أيامه أن يكون حاكما بأمره أو قديسا ، ولكنه أصر على أنه ليس الا عبدا من عباد الله أرسله الله الى الناس بشيرا ونذيرا ، وقد أحدث « محمد » بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه وأقام دينا يدعو الى الله وحده ورفع عن المرأة قيد العبودية التى فرضتها تقاليد الصحراء ونادى بالعدالة الاجتماعية .

والجنة التى وعد بها محمد المتقين أسىء فهمها أيضا فهو فى هذه الصحراء الملتهبة وفى هذه العواصف الرملية أنذر الكافرين بعذاب جهنم ووعد المتقين جنات تجرى من تحتها الأنهار فيها « حور » عين وكلمة « الحور » غريبة على خيال الغرب . وقد حاولوا أن يترجموها بكلمة من الكلمات النازلة فى اللغة الانجليزية . وحينما قبض الله الى جواره ابراهيم وهو الابن الحبيب للنبى محمد كسفت الشمس وقيل ان الله قد واساه على هذه الصورة ولكن محمدا أعلن :

« ان الشمس والقمر آيتسان من آيات الله ، لا تكسفان لموت أحد ولا لمولده » .

وعند وفاة محمد ظن البعض أنه لا يمكن أن يموت ، ولكن خليفته قضى على هذا الوهم بخطبة من أنبل الخطب فى تاريخ الأديان قال :

أيها الناس : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . ويؤمن المسلمون بأنهم أتباع الله ومحمد النبى العظيم كان انسانا وكان بشرا وهم يعبدون الله وحده .

ولعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم . وهو بكل تأكيد أيسرها حفظا وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ، وقد نزل «القرآن» باللغة العربية وفى كل مكان فى العالم الاسلامى حرص المسلمون على تعلم العربية وهى ليست باللغة السهلة ليتمكنوا من قراءة كتابهم المقدس وأن يؤدوا الصلاة باللغة العربية .

والمسيحى واليهودى الذى يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريبا عما جاء فى آياته المنزلة ولو أننا قرأنا هذه الآيات التالية التى اخترناها من مئات الآيات فى أى معبد لدين آخر لخيل للناس أنهم يستمعون الى آيات من الكتب المقدسة عندهم :

* « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » .

* « وان يونس لمن المرسلين ، اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم » .

* « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين » .

ولقد ترددت فى القرآن أسماء كثيرة وردت فى المسيحية واليهودية : فهناك خمس سور سميت باسم نوح ويونس ويوسف وابراهيم ومريم .

وهناك أسماء أخرى تعـدد ذكـرها فى الآيات : مثل : عيسى وآدم وداود واليسع ويعقوب وموسى ولوط وسليمان .

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملى فى المعـاملات بين الناس ، وهو فى ذلك يقول : اذا تداينتـم بدين الى أجل مسـمى فاكتبوه ويقول « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » وهذا التوفيق بين عبادة الله الواحد وبين التعاليم العملية جعل القرآن كتابا فريدا ووحدة متماسكة .

والى جانب القرآن ترى الاسلام يعتمد على السنة وهو ما روى عن الرسول من أحاديث وأفعال والوعى الاسلامى انما يرجع الى هذه الأحاديث التى قالها محمد .

وكل مسلم عندما يبدأ طعامه أو عمله يسـتهل ذلك بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » وهى فاتحة القرآن والمسلم اذا لقى مسلما اقرأه السـلام قائلا : السلام عليكم ، والدعوة الى الصلاة الجماعية أخذت أيضـا عن السنة وهى تبـدأ عادة بالأذان وبعض هذه المبـادىء النبوية أثرت فى سـلوك الغربيين .

وتدل كل الأحاديث على أن محمدا كان رجلا له طباع الأطهـار وأنه نادى بتحرير الأرقاء وحرم وأد البنات وطالب باعطاء الأرض للمعدمين ودعا الى السلام بدلا من الحرب ونادى بسيادة العدالة الاجتماعية .

ولكى تكون مسلما يجب أن تؤمن بمبادىء خمسة :

١ — أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وخاتم النبيين وأنه قد حمل آخر رسالة سماوية وهى الاسلام الذى أكمل كل الرسالات .

٢ — اقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم وكل الذين زاروا البلاد الاسلامية شاهدوا منظرا فريدا فى عالم الديانات ففى مساجد أضواؤها خافتة يقف مئات المسلمين كتفا الى كتف ويركعون ويسجدون متجهين الى بيت الله الحرام فى مكة وهذه الصلاة هي التى ولدت الاخـوة فى الاسلام .

٣ — الزكاة : وهى واجبة على المسلمين فى دخولهم ولهذا المبدأ أهمية بالغة عند المسلمين .

٤ — صوم رمضان : ويذهلك أن تعرف كم عدد الذين يحرصون على الصيام فالصائم يتناول سحوره قبل الفجر ويشرب آخر كوب من الماء ويتناول آخر لقمة من الخبز ويظل هكذا الى الغروب مهما ترهقه حرارة القيظ .

٥ — حج البيت : والمسلم يجب أن يحج الى مكة اذا كان قادرا جسميا وماليا .

ولم يحدث أن انتشر دين بهذه السرعة فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢م كان الاسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية ولم يلبث بعد ذلك أن ضم اليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل أسبانيا وفي الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا .

***

واعتقد الغرب أن توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون الى السيف ، ولكن الباحثين المنصفين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية ، وقد حرص « محمد » على تلقين المسلمين التعاون مع « أهل الكتاب » أى اليهود والنصارى .

وقد عاش أهل الكتاب يعاملون معاملة طيبة وظلوا أحرارا فى عباداتهم، ومن الحقائق التي يجب أن تعرف أن كثيرا من الغربيين قد درجوا على تصديق كتب التاريخ التى تزعم بأن المسلمين برابرة وأصبح عسيرا عليهم أن يدركوا مدى العمق الذى تأثرت به حياتنا العقلية بفضل المفكرين المسلمين فى مجال العلم والطب والرياضيات والجغرافيا والفلسفة . والصليبيون الذين غزوا الأرض المقدسة وحاربوا المسلمين قد عادوا الى أوربا بأفكار جديدة عن الحب والشعر والفروسية وفن القتال ونظام الحكم . وفكرتنا عن قيام

جامعة من الجامعات وما يجب أن تكون عليه انما تأثرنا فى ذلك بعلماء المسلمين الذين أتقنوا « فن التاريخ » والذين حملوا الى أوربا تعاليم الاغريق .

وعلى الرغم من أن الاسلام نشأ فى الجزيرة العربية فان العرب نسبة قليلة فى العالم الاسلامى ، وأقل من ربع المسلمين يتكلمون العربية كلغة أصلية . والاسلام أكثر الأديان دعوة الى التآخى بين كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وشعوبهم . وقد تعددت ألوان المسلمين فهناك السود فى أفريقيا والصفر فى الصين والسمر فى الملايو والبيض فى تركيا .

واذا نظر انسان الى الخير العميم الذى حققه الاسلام وخاصة فى شعوب ناهضة مثل مصر وباكستان وأندونيسيا فلن يسعه الا أن يدرك العظمة الدائمة للاسلام .

وقد درست الاسلام سنوات طويلة وقد وجدت تعاونا واضحا بين الاسلام والمسيحية . ويهم العالم اليوم أن يعلم أن الاسلام كدين يعد خصما منافرا للالحاد .

ومن عجب أن الاسلام اليوم مازال مفهوما فهما سيئا فى أمريكا وأوربا . فما زالت هناك أفلام سينمائية وتماثيل مختلفة تصور الاسلام بصورة لاتمثل حقيقته ، فضلا عن اطلاق اسم المحمدين على أتباع الاسلام وهذه كلمات ظالمة لهذه الديانة العظيمة .

لقد نادى النبى محمد بتحرير الأرقاء وحرم وأد البنات وطالب باعطاء الأرض للمعدمين ودعا الى السلام بدلا من الحرب وسيادة العدالة الاجتماعية بين الناس من أجل هذا « اخترت الدفاع عن الاسلام » .

خاتمة

هذه الحصيلة المنوعة التى قدمنـاها فى هذا الكتاب لأول مرة فى الدراسات الاسلامية انما تمثل محاولة صادقة علمية لفهم الاسلام والفكر العربى الاسلامى من جانب مجموعة من مفكرين غير مسلمين تختلف جنسياتهم وأديانهم .

وقد كان علينا أن نواجه هذا التيار الجديد فى الفكر العالمى وعلاماته تتزايد كل يوم دلالة على أنه قد أصبح هناك من يحاول أن يفكر خارج نطاق العقائد والفلسفات المرتبطة بحياته الحاضرة وماضيه ، ملتمسا طريقا جديدا لتحرير فكره ، أو باحثا عن قيم جديدة خارج نطاق الفلسفات والعقائد التى تسيطر على الفكر الغربى المعاصر وترتبط بالحضارة الحديثة .

وقد جاء هذا الاتصال بين الباحثين وبين الاسلام والفكر العربى الاسلامى من أكثر من طريق :

١ — جاء من طريق وضوح الحقيقة التى طالما حاول الغرب انكارها واخفائها ، وهى أن الفكر العربى الاسلامى هو مصدر هام من مصادر الحضارة الغربية والفكر الغربى ، وان الفكر الاسلامى هو مبدع المذهب العلمى المنهجى .

وقد انقضى وقت طويل قبل أن يجرؤ مفكر غربى على الاعتراف بأن الجذور العربية الاسلامية هى مصدر الحركة العلمية .

٢ — جاء من تطلعات فردية لمفكرين استهدفوا دراسة الأديان والثقافات الانسانية للبحث عن الحق مجردا من الوراثة والبيئة .

وقد كان الاعتراف بأثر الاسلام والفكر العربى الاسلامى فى جذور الحضارة والثقافة الحديثة مصدرا من مصادر التطلع الى جوهر الاسلام

وهذه الحضارة ، كما بلغ فريق من المثقفين والأعلام والمنصفين ذوى النظر الحر أن يجدوا فى الاسلام حاجتهم العقلية والروحية وأن يكشفوا عن جوهر هذا الفكر فى دراستهم .

ومن هنا استطاع الاسلام والفكر العربى الاسلامى أن يحفر مجرى جديدا بدأ أول أمره ضيقا ، ولكنه توسع من بعد وعمق والحق أن هذه المرحلة فى الكشف عن جوهر الاسلام والفكر العربى الاسلامى بانصاف قد امتدت أكثر من مائة عام على الأقل حتى أصبح فى الامكان أن يقال ان « الاسلام استطاع أن يلفت النظر اليه على أنه عقيدة تقدمية ايجابية حية قادرة على الحركة والحياة والالتقاء بالثقافات والحضارات المختلفة والمتتابعة وأن هذه الخاصية فى جوهره خاصية انه دين ونظام مجتمع : هى مصدر حياته وقوته واستمراره ، وانها هى التى حالت دون سقوطه ، بعد أن ضعفت الأمة التى تعتنقه . وقد سقط كثير من العقائد مع الأمم التى ضعفت وسقطت .

وفى ظل الحملة العنيفة على الاسلام والفكر العربى الاسلامى التى يشنها خلال أكثر من قرن ونصف قرن وموالاة اتهامه بالضعف والقصور والتخلف واتهام رسوله وكتابه بكل منقصة ، هذه الحملة التى قادها الفكر الغربى المتمثل فى القوى الاستعمارية والنفوذ التبشيرى وما يؤيده من نفوذ سياسى وطائفى واستشراقى ، وما يلقاه من تأييد المتابعين للاستعمار والتغريب من دعاة الشعوبية واتباع المبشرين والمستشرقين ، فى ظل هذه الحملة العتيقة يبرز هذا التيار ويستطيع بعض المثقفين التبشيريين أن يصلوا الى جوهر الاسلام من خلال كتابات خصومه والمتعصبين له ، وأن يتاح لهم كشف الحقيقة .

ولقد اتسع نطاق هذه الظاهرة وعمق وكان المجلس الأعلى للشئون الاسلامية قد أصدر منذ ثلاثة أعوام كتابنا « الاسلام فى غزوة جديدة للفكر

«الانساني» وقد حاولنا فيه تصوير المعركة بين الاسلام وخصومه وكشفنا عن نماذج من هذا التيار الذى بدأ واضحا يلفت نظر الباحثين غير أننا فى خلال هذه السنوات استطعنا أن نكشف مزيدا من الكتابات المتعمقة العلمية الصادرة عن انصاف ودراسة وقد توالت هذه الدراسات واتسع نطاقها وأصبحت تمثل « ظاهرة » تحتاج الى أن تدرس ككل ، وأن يجرى البحث فى مجموعها ولما كنا نحرص على أن لانكرر أنفسنا فقد أقمنا قواعد هذا البحث على ضوء الوثائق والأسانيد الجديدة التى وصلنا اليها والتى كانت منثورة هنا وهناك على أبعاد بعيدة ، وكانت فى جزئياتها لا تمثل الا نظرات منوعة فلما استطعنا جمعها وتنسيقها وفحصها وتقويمها ودراستها أمكن أن نصل الى حقائق أساسية تكشف عن مفهوم الاسلام فى نظر المثقف غير العربى وغير المسلم ، ولا نسارع فى اصدار الحكم على صحة هذا المفهوم أو خطأه ولكنا نرى أساسا أنه يمثل اجتهاد الباحث المتطلع الى « طاقة جديدة من النور » للنفس الانسانية وللفكر الانسانى وقد استطاع الاسلام أن يعطيه ذلك الفيض الذى تطلع اليه .

ويمكن القول بان ضياء الاسلام قد استطاع أن ينفذ الى النفس الغربية المثقفة وبدأ يأخذ مكانا ، لا على أنه تراث أو تاريخ أو ماض كان له الفضل فى تأسيس أحجار البناء فى الحضارة البشرية المعاصرة فحسب ولكنه بوصفه « قوة جديدة حية متفاعلة قادرة » على أن تقدم للانسانية اليوم وبعد اليوم حاجتها فى مجال الحياة والثقافة .

وعندى أن هذا التيار الجديد الذى بدأ ضعيفا رقيقا قد أخذ مجاله يتسع اليوم ويعمق وعندنا أن هذا التيار لن يموت بل سيزداد مع الأجيال القادمة قوة وتدفقا ، ولا يستبعد أن يكون مصدر الضياء الجديد التى تترقبه الانسانية بعد رحلة طويلة فى البحث عن « منهج حياة » فقد أتيح لها منذ القرن الخامس عشر أن تطوف فى آفاق المذاهب والفلسفات والعقائد خلال خمسة قرون كاملة توسع فيها العلم وبلغ مدى قدرته فى الكشف عن آفاق

البحث التكنيكى ثم وصل الى القمة عندما فجر الذرة واستطاع أن ينفذ الى آفاق الجو بالصواريخ والأقمار .

ولم تكن هذه المذاهب فى مجموعها الا محاولات من خلال العقل البشرى لايجاد « منهج حياة » وحين اتصل الغرب بالشرق فى العصر الحديث كانت محاولته أن يفرض فلسفاته على المناطق التى سيطر عليها بنفوذه السياسى والاقتصادى ، واستطاع أن يبلغ من ذلك ما شاء ، فى بعض الأقطار ومع بعض الأمم أما فى نطاق العالم الاسلامى فان ذلك بدا له عسيرا غاية العسر فان مفهوم الاسلام فى عقائده وفكره وثقافته وما ترسمه مقوماته ومفاهيمه قد حال كثيرا دون أن يخضع أو يذوب أو يتحول بالرغم من الحملات العنيفة التى وجهت اليه .

وقد أصر الاسلام فى حركة اليقظة التى بدأها قبل وصول الحملات الاستعمارية بوقت طويل أن يستمد مقومات نهضته من قيمه الأساسية الزاخرة بجوانب القوة والعدل الاجتماعى والوحدة والشورى والاخاء الانسانى وقد استمد مناهجه الجديدة من تراثه ووجوده أصلا مع انتفاعه بتجارب الأمم يأخذ منها دون أن ينحاز .

بل انه أحدث فى ظل ذلك حدثا باهرا حيث وسع الاسلام نطاقه ونشر كلمته فى آفاق العوالم الوثنية فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا فحقق نتائج باهرة أذهلت خصومه ومحاولى القضاء عليه فاعتنقه فى خلال القرنين الأخيرين عدد ضخم يزيد أضعافا عن عدد أصحابه الأصليين .

بل ان الاسلام قد أسفر عن جوهره حين كشف عن أنه كان العامل الفعال الحى فى حركات التحرر وأنه كان رمزا على مقاومة النفوذ الأجنبى وآية الوحدة والتجمع وملاذ السود المضطهدين من جحيم التفرقة العنصرية فى قلب أفريقيا وفى قلب القارة الأمريكية .

وكانت تجربته الضخمة الباهرة قدرته على تزكية الثورة على الاحتلال فى الجزائر وبروزه كقوة فعالة فى الحيلولة دون القضاء على كيان أمة كاملة ضاعت لغتها ولكن الاسلام ظل هو عامل البقاء الوحيد .

ولقد شهد الغرب هذا الموقف كله وعجب كيف يكون الاسلام فى محنة، وقد جثمت عليه قوى الاستعمار وسيطر النفوذ الأجنبى على أرضـه فأزال وحده دولته ومع ذلك فقد عجز أن يزيل مقومات فكره ، بل ان فكره هذا قد تجدد واستيقظ وبدأ حركة المقاومة الضخمة الباهرة فى مواجهة محـاولة القضاء عليه ، وكشف عن جوهره وصحح كثيرا من المفاهيم ، ورد كثيرا من الاتهامات وواجه الحياة المعاصرة والحضـارة والثقـافة الغربية بـروح من السماحة والقدرة على الأخذ والعطاء ، وبدأ الاسلام والفكر العربى الاسلامى قادرا على الحركة الايجابية التقدمية وبرزت قيمه الأساسية قادرة على التلقى والامتصاص من مختلف الثقافات والحضارات دون أن تتوقف أو تجمد أو تتعصب ، كانت آفاقها دائما متفتحة سمحة ، واضحة القـوة والحيـوية ، تقدمية القيم والمفاهيم .

ولقد استطاع النفوذ الغربى المعارض للاسلام والفكر العربى الاسلامى أن يشكك أهل الاسلام فى جوهر عقائدهم وثقافتهم وحاول ذلك أيضـا مع أهل الغرب أنفسهم حتى يقول الدكتور خالد شلدريك : انه حين أراد أن يدرس الاسلام عجز أن يجد فى مكتبات وطنه كتبا منصفة وان كل ماوجده وهو كثير غاية الكثرة كان يحمل على الاسلام حملات متعصبة غاية فى الظلم.

ومع هذه المحاولات فقد استطاع هؤلاء أن ينفذوا الى ضياء الاسلام فيعرفوه ويواجهوه فى صراحة وتجرد ، ولسـنا ندعى أن كل من كتب عن الاسلام كان سليما منصفا ولكنه كان على أى حال من وجهـة نظره متحررا من التعصب أو محاولا القاء الضوء غير المتحيز .

***

وأعتقد أنه من حق الاسلام علينا ونحن ندعو له وندافع عنه أن ننظر فى هذه الكلمات التى كتبها أكثر من ثلاثين كاتبا فى وحدة متكاملة لنرى رأى كتاب منصفين فى فكرنا العربى الاسلامى وفى دين الاسلام والرسول محمد واللغة العربية والقرآن ، ولو أننا تجاهلنـا هذا الذى كتب عنـا من باب الانصاف لكان ذلك تباعدا بيننا وبين وجهة نظر جديدة تأخذ طريقهـا الى

الفكر الانساني وتشق تلك الجبهة الصماء التي كانت تحمل لواء الخصومة والتعصب منذ الحروب الصليبية الى اليوم .

واذا كان علينا أن نواجه اليوم رأى خصوم الاسلام وما يثيرونه من شبهات فان علينا أيضا بنفس الأهمية أن نعرف وجهة نظر من بدا لهم الاسلام قادرا على حل مشاكل الانسانية ومنحها زادا من القوة والحيوية هو في ذاته رأبا لصدعها وبلسما لجراحها .

ونحن قد لانرضى تمام الرضى عن كل مايقال فى باب الانصاف لأنه قد لا يصل الى مدى ايماننا بالاسلام والنبى والقرآن ولكننا لا نشجبه ولا نغضى عنه لأنه يمثل وجهة نظر مفكرين بدأوا حياتهم فى معسكر أعداء الاسلام ثم استطاعوا أن ينفصلوا عنه وأن يكونوا فى انصاف وتجرد « رأيا جديدا » يخالف ماورثوه وما درسوه في مطالع حياتهم .

ونحن المسلمين نستفيد من هذه الآراء فى مجموعها فائدة أخرى تلك هى أننا نرى الاسلام فى ضوء العقل الانسانى ومن خلال الفكر البشرى ومن خلال نفسيات ذات طابع خاص فى حياتها وتفكيرها ربما كان مخالفا لطابعنا ومفاهيمنا الاساسية وبالجملة فان هذه (ظاهرة) فى تاريخ الاسلام المعاصر لانستطيع أن نتجاهلها أو نغمض عيوننا عنها .

ومن هنا تأتى أهمية النظرة التى تعطى الثقة بأن الاسلام مازال منذ مطالع فجره الى اليوم وهو يشق طريقه الى العقل الانسانى والنفس الانسانية وانه كلما ازدادت حركة التطور الاجتماعي وانماء الحضارة واتساع دراسات العقل والعلم والتجربة ازداد الاسلام بذاتيته العميقة قدرة على اقتحام مجالات جديدة وعقليات جديدة .

وتلك هى احدى طوابعه الخالدة .

المؤلف

المراجع والمصادر

بحث علمي عن القرآن : فيليب دي طرازى

تاريخ العرب العام : سيديو

الأبطال وعبادة الأبطال : توماس كارليل

الديانات الموجودة فى الهند : دكتورة انى بيزنت

رســـــول الله : اتيان دينيه ترجمة د. عبدالحليم محمود

حيـــــاة محمد : اميل درمنحم

محاسن الاســـلام : دكتورة لورا فينشيا فاليزى

الاسلام نشأته وانتشاره وتطوره : مقال لارنولد توينبى

الاســـلام والعرب : روم لاندو

المنازعة بين العلم والدين : درابر

مقدمة لتاريخ العلم : جورج سارطون

مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى : فرانز روزنتال

شمس الله تسطع على الغرب : دكتورة سيجريد هونكه

مدينة الاسلام فى الغرب : دكتور لويجى رينالدى

الدعوة الى الاســـلام : توماس ارنولد

الاســـلام فى مفترق الطرق : ليوبولد فابس (محمد أسد)

البحث عن الله : ايفلين كوبلد

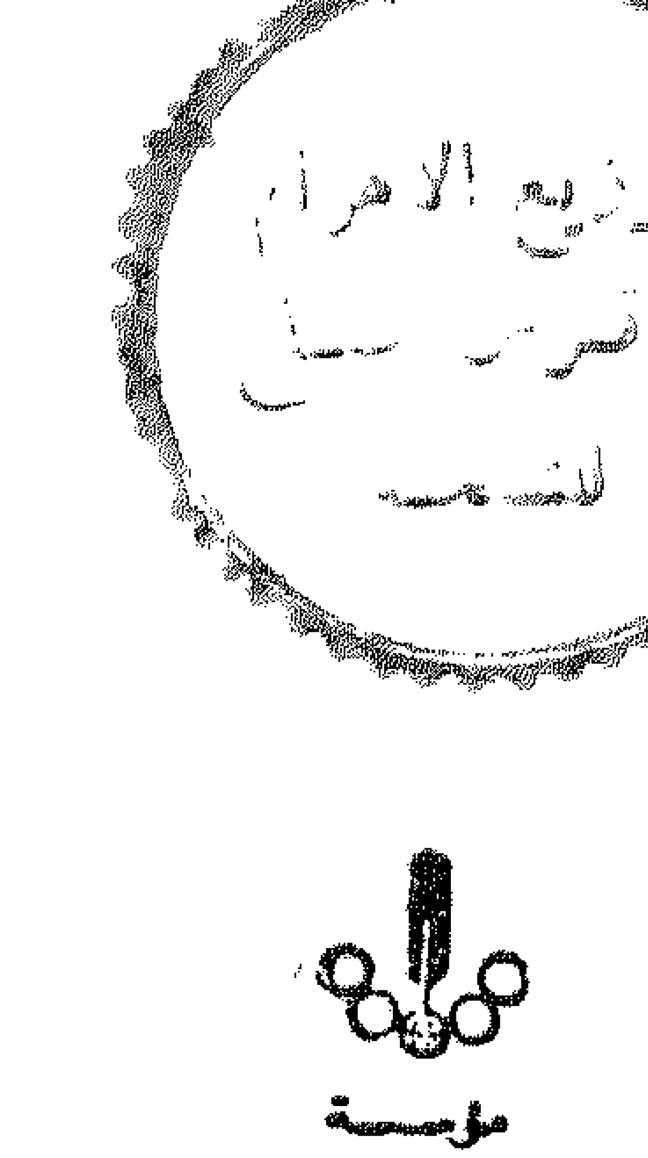
الفهرس

الباب الرابع :

الباب الخامس :

الباب السادس :


مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الإعلانات الشرقية)



مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)

